نوابغ الفكر العربي

١٣

السهروردي

بقلم سامي الكيالي



دار المعارف بمصر

السهروردي

نوابغ الفكر العربي

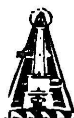
١٣

السهروردي

بقلم سامي الكيالي

كان السهروردي أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية جامعاً للعلوم الفلسفية بارعاً في الأصول الفقهية مفرط الذكاء فصيح العبارة وكان علمه أكثر من عقله .

ابن أبي أصيبعة





دار المعارف

الفصل الأول

عصر السهروردى

١ ـ توطئة

١ ـ الفكر العربى والفلسفة الإسلامية :

عرفت العقلية الإسلامية فى تاريخها الطويل ، شخصيات لامعة تركت للتراث الإنسانى آثاراً قيمة ومناهج قويمة وآراء حصيفة يزداد سناها ويشع بريقها ويتلألأ نورها كلما مرت بها الأيام وتقادمت العصور .

من عيون هذه الشخصيات ، بل من نوابغ العقل الإنسانى « الحكيم شهاب الدين السهروردى » زعيم مدرسة الإشراقيين والذى مرت حياته ، على قصرها ، بألوان عنيفة من ضروب النضال الحىّ فى سبيل الحق والمثل العليا .

* * *

وقبل أن نعرض إلى خطوط فلسفته لابد من عقد فصول تمهيدية عن نشأته ومراحل حياته ، وعن العصر الذى نشأ فى صميمه ، وعن الطابع السياسى والفكرى لذلك العصر ، وبذلك نرسم صورة واضحة جلية لهذا الفيلسوف الحكيم الذى يعتبر من نوابغ الفكر الإسلامى ، ولا علينا أن نقول من « نوابغ الفكر العربى » عنوان هذه السلسلة الأدبية التى تتناول تأريخ حياة كبار مفكرى العرب والإسلام بالبحث والتحليل .

وقد يقول قائل : وما الفرق بين الفكرين ؟

وهذا سؤال وجيه واستطراد فرضته على نفسى أرى من الفائدة أن أمر به ولو مروراً سريعاً .

فقد أثار غير واحد من المستشرقين موضوع « الفلسفة العربية » فى مباحثهم ودراساتهم . . . فمنهم من أراد أن يعتبرها « فلسفة إسلامية » وأن يعتبر الفلاسفة

والمفكرين الذين كتبوا بالعربية « فلاسفة مسلمين » دون أن يدخلهم فى نطاق الفلسفة العربية . . . ومنهم من يرى العكس تماماً باعتبار أن آراءهم وفلسفتهم قد كتبت بالعربية ، وهى بهذا قد دخلت فى نطاق « الفكر العربى » الواسع الآفاق . . .

وكل واحد يدلى بحجه ، وكلها ، فى نظرى ، تلتقى فى مصب واحد .

ولم يقف الأمر عند المستشرقين بل إن غير واحد من مفكرى العرب المعاصرين ممن عرضوا فى دراساتهم للمباحث الفلسفية ، والإسلامية منها بصورة خاصة ، قد أثاروا هذه الناحية أيضاً : أثارها عرضاً الأستاذ أحمد لطفى السيد ، والمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور إبراهيم مدكور والأستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور جميل صليبا وغيرهم وغيرهم .

يقول بعضهم : « فلسفة إسلامية » ويرون ، أسوة ببعض المستشرقين ، أن هذه الفلسفة ليست عربية ، لأن جمهرة أهلها لم يكونوا من أصل سامى ، وأنها أحق أن تضاف إلى الإسلام لأن له أثراً ظاهراً ، ولأنها نشأت فى بلاد إسلامية وعاشت تحت راية الإسلام ، بينا الذين يقولون « فلسفة عربية » يستندون إلى أن « الإسلام » رغم كل ما نفذ إليه من العناصر الأجنبية ظل أثراً من آثار « العبقرية العربية » . . ومن جهة ثانية « فإن لفظ المسلمين يخرج النصارى والإسرائيليين والصابئة وأصحاب ديانات أخرى لهم نصيب غير يسير فى العلوم والتصانيف العربية ، وخصوصاً فيما يتعلق بالرياضيات والهيئة والطب والفلسفة [١] » .

ونرى أن اصطلاح « الفلسفة العربية » أشمل وأدق ، ولا سيما أن عدداً كبيراً من مفكرى الإسلام قد اعتمدوا اللغة العربية أداة حية لتدوين أكثر مصنفاتهم . .

---

(١) كارلونلينو « علم الفلك : وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى » ص ١٨ ج ١ .

فالفارابى[١] والغزالى [٢] وابن سينا[٣] والفخر الرازى[٤] وعشرات بل مئات من الفحول الذين أنبتهم بلاد فارس قد تركوا لغتهم الأصلية وكتبوا تأملاتهم الفلسفية ونزعاتهم الصوفية وآراءهم المختلفة فى الدين والعلم والأدب والمنطق ، وفى الكون والحياة باللغة العربية . فهل نخرج هؤلاء المفكرين من نطاق « الفكر العربى » وقد عاشوا فى ظلاله وحلقوا فى أجوائه . . .

---

(١) أبو النصر الفارابى (٢٦٠-٣٣٩ هـ ٨٧٤ - ٩٥٠م) أكبر فلاسفة المسلمين ، الملقب بالمعلم الثانى ، تركى الأصل ، متعرب ، ولد فى فاراب - على نهر جيحون - وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها ، ورحل إلى مصر والشام واتصل بسيف الدولة بن حمدان وتوفى فى دمشق ، كان يحسن أكثر اللغات الشرقية المعروفة فى عصره ، له نحو مئة كتاب منها « الفصوص » وقد ترجم إلى الألمانية ، و « إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها » و « مبادىء أهل المدينة الفاضلة » و « المدخل فى الموسيقى » و «السياسة المدنية » و « جوامع السياسة »؛وكان زاهداً ، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب ، يميل إلى الانفراد بنفسه ، ولم يكن يوجد غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض .

(٢) محمد بن محمد الغزالى الطوسى أبو حامد (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م) حجة الإسلام ، فيلسوف متصوف ، له نحو مئتى مصنف ، أشهرها : « إحياء علوم الدين » و «تهافت الفلاسفة » و « الاقتصاد فى الاعتقاد » و « محك النظر » و « معارج القدس فى أحوال النفس » و « مقاصد الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال ».ولد فى طوس بخراسان . ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته فتوفى فيها ، ونسبته إلى غزالة « قرية من قراها » .

(٣) أبو على ،الحسين بن عبدالله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ ٩٨٠-١٠٣٧م) الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف فى المنطق والطبيعيات والإلهيات والطب الذى - كما قيل - كان معدوماً فأوجده بقراط ، وكان ميتاً فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا . ولد فى إحدى قرى بخارى . ونشأ وتعلم فى بخارى ، وطاف البلاد ، وناظر العلماء . واتسعت شهرته ، وصنف نحو مئة كتاب بين مطول ومختصر . ونظم الشعر الفلسفى الجيد ، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين ، وتوفى فى همذان . وأشهر كتبه : « القانون » وقد ترجمه الفرنج إلى لغاتهم وكانوا يتعلمونه فى مدارسهم وطبعوه بالعربية فى روما . و « المعاد » و « رسالة فى الحكمة » و « الشفاء » و « أسرار الحكمة المشرقية » و « أرجوزة فى المنطق والإشارات ولسان العرب والعشق » و « رسالة فى فلسفته » .

(٤) فخر الدين الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ ١١٥٠ - ١٢١٠ م) الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، أصله من طبرستان ، ولد فى الرى ، ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفى فى هراة . من تصانيفه الشهيرة : « تفسير القرآن الكريم » و « أسرار التنزيل » و « المباحث المشرقية » و « نهاية العقول » و « القضاء والقدر » و « النفس والنبوات » و « شرح الإشارات لابن سينا » و « شرح سقط الزند للمعرى » .

لست أريد أن أتوسع فى هذا الموضوع فحسبي ما قدمته لأدعمه بنص يكاد يفتح الباب على مصراعيه فى لون هذا الخلاف الذى يقوم بين الباحثين ، فقد جرت فى صدر الإسلام حادثة حول « العربية والعجمة » وعما إذا كان يحق للأعجمى أن يدعى العروبة فكان كلام النبي محمد محكماً فى هذا الخلاف الذى انشطر الرأى حوله شطرين . . . .

فى مجلس اجتمع فيه سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى . وقف قيس بن مطاطية يعرّض بأعجميتهم ، فما كان من معاذ بن جبل إلا أن أخذ بتلابيبه وقاده إلى النبي الكريم محمد « صلوات الله عليه » وأخبره بمقالته . . ثم نودى الصلاة جامعة وقال :

يأيها الناس : إن الرب واحد ، والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان . . . فمن تكلم بالعربية فهو عربى [١] .

ولا ضير بعد أن اعتبر النبي الكريم محمد كلاً من سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى الذين تكلموا العربية « عرباً » أن نعتبر ذلك التراث الذى كتبه الفارابى والغزالى وابن سينا باللغة العربية أدخل فى نطاق « الفكر العربى » منه فى أى نطاق آخر .

ب — عبقرية اللغة العربية :

إن هذا الموضوع الذى عرضنا له هذا العرض السريع يجرنا إلى أن نقول كلمة فى « عبقرية اللغة العربية » التى فرضت نفسها على الكثير من بقاع العالم .

فالواقع . . أن قضية اللغة العربية ومدى انتشارها فى مختلف الأقطار والدى مختلف الأمم وتغلبها على لغاتهم إنما هى حدث من الأحداث الخطيرة فى تاريخ لغات العالم . . . وقد رد بعضهم سر هذه القوة إلى « الدين » وهذا بلا شك عامل قوى له أثره الذى لا ينكر . . . ولكن هناك أشياء غير الدين ، أشياء ذات أثر سحرى فى خصائص هذه اللغة التى ما دخلت بيئة من البيئات إلا اجتذبت إليها الموهوبين من العباقرة حتى من غير المسلمين فكانوا يقبلون على تعلمها فلا تكاد تلامس شغاف قلوبهم حتى يعلنوا إيمانهم بها ويخروا سجداً أمام محرابها الأزلى .

---

(١) « تهذيب ابن عساكر » ج ٢ ص ١٨٩ .

نعم لقد اجتذبت العربية « بحلاوتها ومرونتها ، وبكثرة اتساعها فى شرح العلوم وتيسيرها ، بل جمالها المتمثل فى إعرابها وتعبيرها ، وإعجازها وإيجازها ، ومترادفاتها وأمثالها وكثرة معانيها [1] » اجتذبت طائفة من الموهوبين فعكفوا على دقائقها وأسرارها يدرسونها بشوق وصبر ونهم ، وما زالوا حتى ملكوا عنانها كأبرّ أبنائها بها واتخذوها أداة طيبة للتعبير عن آرائهم ونزعاتهم ، وقد تجاوز عدد الذين صنفوا بالعربية ، من غير العرب ، المئات وكلهم ، كما ألمعنا ، ذوو باع طويل فى التدوين والتأليف . . . فعبد الله بن المقفع مترجم كتاب « كليلة ودمنة » وبديع الزمان الهمذانى مبتكر فنّ المقامات وقابوس بن وشكمير صاحب « رسائل البلاغة » ، وابن مسكويه صاحب « تجارب الأمم » وابن سينا صاحب « الشفاء فى الحكمة » و « القانون فى الطب » ومصنف أكثر من مئة مؤلف ، والثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » والبيرونى صاحب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » والخوارزمى صاحب « مفاتيح العلوم » والزمخشرى صاحب « أساس البلاغة » والشهرستانى صاحب « الملل والنحل » وعشرات غيرهم ممن هم فى علو كعبهم ، كلهم قد دونوا مؤلفاتهم بالعربية ولاشك أن هذا الفيض من العلوم والفنون وأكثره فى غير شئون الدين هو أدخل فى نطاق « الفكر العربى » منه فى « الفكر الإسلامى » وهذا الذى يجعلنا نعتبر السهروردى ، وقد كتب مؤلفاته بالعربية ، من نوابغ الفكر العربى .

٢ ـ الحركة السياسية والعقلية

عاش الحكيم شهاب الدين السهروردى فى أوائل القرن السادس الهجرى حيث كان العالم العربى ، أو المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، فى وضع متقلقل مضطرب : إمارات مستقلة واهية البنيان ، وممالك كبيرة على وشك الانهيار ، ومطامع أجنبية ذات مخالب حادّة .

---

(١) أحمد حامد الصراف : « عمر الخيام » ص ٥ .

فقد كان الغرب ينظر إلى الشرق نظرة مريبة ، شأنه فى الماضى كما هو شأنه اليوم ، تدفعه إلى ذلك مطامع سياسية واقتصادية لبست رداء الدين ، ذلك الرداء القاتم الذى صبغ دنيا العالم الإسلامى بالنجيع الأحمر ، أريد تلك الحروب الدامية التى أطلقوا عليها اسم « الحروب الصليبية » والتى نشبت بضراوة مدة قرنين كاملين (٤٩٠ — ٦٩٠ هـ) بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى .

فى ذلك العصر المضطرب عاش الحكيم شهاب الدين السهروردى ، وهو عصر ، إلى ما ساده من اضطراب وقلق وذعر، وإلى ما نشب فى أطرافه من ثورات وفتن وحروب، وما هُرِق على جوانب أرضه من دم ، كان يتسم بطابَع علمى باهر السنا ، ففى تلك الفترة استفاضت المعرفة فى جوانب الشرق الإسلامى وتشعبت فروعها، وكثر الأدباء والشعراء والفلاسفة والمتصوفة والحكماء ، وكانت المذاهب الدينية والنظريات الفلسفية تتصارع صراعاً أشبه ما يكون بهذا الصراع الدامى الذى نشب بين الشرق والغرب ، وكثيراً ما يكون الصراع الفكرى أشد عنفاً من الصراع الدموى .

فبذور المعرفة التى بذرها الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن جاء بعدهم والتى بدأت فى دمشق والرها وبغداد ، ثم امتدت إلى خراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر ، ثم إلى مصر والأندلس ، تلك البذور الطيبة التى كان من ثمارها اليانعة ترجمة الكثير من كتب الفلسفة والمنطق والطب والأخلاق والسياسة والهيئة قد كان لها أثرها فى العقلية الإسلامية التى وقفت شبه محترصة من هذه الآراء ولا سيما فى فترة كان علم الكلام قد بلغ أوجه ، فاشتدت الخصومات العلمية بين الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والجبرية ، وانتشرت رسائل إخوان الصفا وشاعت الآراء الباطنية وتعددت الفرق والطوائف . . . وقد وقف السهروردى من جميع هذه التيارات الفكرية التى كان يغص بها عصره موقف الباحث المنقب الذى يعتمد على عقله وذوقه فمالت نفسه إلى الحكمة والتصوف وسلك طريقاً يختلف عن الكثير من متعرجات هذه الطرق : الطريق الفلسفى الصوفى الذى قامت عليه عناصر فلسفته الإشراقية التى خلدته فى ضمير الزمن وإن أودت بحياته فلقى مصرعه فى سبيل النضال عن فكرته .

كان الصراع بين الدين والفلسفة ، فى تلك الفترة ، على أشده ، وكان الفلاسفة عرضة لاحتقار العامة « وكان الملوك يسايرون العامة فى ذلك رغبة فى استرضائهم لتوطيد سلطانهم » ، وكان الملك صلاح الدين الأيوبى [١] ، الذى لعب أكبر دور فى إنقاذ الوطن الإسلامى من الغزو المسيحى ، كان يرى فى هذه المذاهب الفلسفية صدعاً للوحدة القومية التى تقوم على الإيمان وعلى قداسة الدين ، فقد كان يكره الفلسفة ورجالها ويراها مفسدة للعقول . . وما للفلسفة تخلق الشكوك وتزعزع العقائد وتثير المجادلات وفى جوهر الدين كل ما تريده الأنفس التى تبغى الصلاح وتنشد الحياة المثالية .

وقد كان السهروردى ضحية هذا الرأى كما سيجىء فى صاب الحديث عن حياته .

وكما ذهب صلاح الدين هذا المذهب فى الشرق ، فقد جاراه المنصور فى الغرب ، فمن أشهر الحوادث التى ترويها كتب التاريخ ، نقمة المنصور بن أبى عامر صاحب الأندلس على الفلاسفة ، فقد اضطهدهم ونفاهم ، وكان فى طليعتهم ابن رشد وأبوجعفر الذهبى وأبوعبد الله قاضى بجايه وغيرهم وغيرهم ، وعزم ألا يترك شيئاً من كتب الحكمة والمنطق فى بلاده إلا أمر بحرقها فى النار وشدد النكير على المشتغلين بها .

وبالرغم من كل ذلك فقد ظهر فى هذا العصر أعلام كالنجوم كتبوا آراءهم بكثير من الحرية ، لأنهم كانوا يؤمنون بصدق رسالتهم ، فلم يثنهم الوعد والوعيد ، ولا السجن والنفى والتشريد ، ولا مجال لأن ندرج ثبت الأعلام الذين تركوا آثاراً خالدة فى شتى شئون المعرفة فحسبنا أن نذكر من نجوم العصر الذى عاش فيه السهروردى سواء من جاء قبله أو بعده : حجة الإسلام

---

(١) صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ - ٥٨٥ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م) من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من قرية « دوين» فى شرق أذربيجان ، ولد صلاح الدين بتكريت ، ونشأ فى دمشق . ودخل مع أبيه أيوب فى خدمة نور الدين زنكى واشترك مع عمه شيركوه فى حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة ٥٥٩ هـ فكانت وقائع ظهرت فيها مزاياه العسكرية ، وقد اختاره الخليفة العاضد الفاطمى بعد وفاة عمه شيركوه للوزارة وقيادة الجيش ولقبه بالملك الناصر وقد دخل مع الصليبيين فى عدة حروب استطاع خلالها أن ينتصر انتصاراً عظيما على ملكى فرنسا وإنكلترا بجيشهما وأسطوليهما =

الغزالى ، والفخر الرازى ، والشهرستانى [١] ، وابن رشد [٢] ، وابن طفيل[٣] ، وغيرهم من الهداة ممن اشتغل بالفلسفة أو بالعلم أو الأدب أو المنطق أو الفقه ، وكلهم قد ترك فى تاريخ العقلية الإسلامية آثاراً خالدة ميزت ذلك العصر بالمعرفة الواسعة بالرغم من الاضطراب السياسى الذى ساد جميع أمصاره وأقطاره .

٣ – البيئة الاجتماعية

كان للاضطراب السياسى ، فى عصر السهروردى وما سبق هذا العصر من قيام دولات وسقوط دويلات ، كان له أثره فى تطور الحياة الاجتماعية وتباين مظاهرها وتشتيت ألوانها ، ولا سيما أن هذا العصر قد شهد تيارات مختلفة من الصراع على صولجان الحكم وأبهة السلطان. كذلك كان الصراع قوياً بين مختلف الطبقات . . . فمن طبقة متميزة تعيش فى ترف وبذخ متناهيين ، إلى طبقات

=وقد دانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالا وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً ، وكان أعظم انتصار له على الفرنج فى فلسطين والساحل الشامى « يوم جطن » . كان رقيق النفس والقلب على شدة بطولته ، رجل سياسة وحرب ، بعيد النظر ، متواضعاً مع جنده وأمراء جيشه .

(١) الشهرستانى (٤٦٧ – ٥٤٨ هـ ١٠٧٤ – ١١٥٣ م) من فلاسفة الإسلام . كان إماماً فى علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة . ولد فى شهرستان . وانتقل إلى بغداد سنة ٥١٠ هـ فأقام ثلاث سنوات وعاد إلى بلده فتوفى فيها . ومن كتبه الشهيرة « الملل والنحل » و « نهاية الإقدام فى علم الكلام » و « مصارعات الفلاسفة » و « تاريخ الحكماء » و « المبدأ والمعاد » .

(٢) ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥ هـ ١١٢٦ – ١١٩٨م) فيلسوف أندلسى من أهل قرطبة ، يسميه الإفرنج Averroés عنى بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية . وزاد عليه زيادات كثيرة ، وصنف نحو خمسين كتاباً منها « فلسفة ابن رشد » و « فصل المقال بين الحكمة والشريعة والاتصال » و « تهافت التهافت » و « الرد على الغزالى » و « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » و « الكليات » الذى ترجم إلى اللاتينية والعبرية . وكان دمث الأخلاق ، حسن الرأى ، عرف الخليفة المنصور قدره فأجله وقدمه واتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد فأوغروا عليه صدر المنصور فنفاه إلى مراكش وأحرق بعض كتبه ، ثم رضى عنه وأذن له فى العودة إلى وطنه فعاجلته الوفاة بمراكش ونقلت جثته إلى قرطبة .

(٣) ابن الطفيل (٠٠٠ – ٥٨١ هـ ٠٠٠٠ – ١١٨٥م) محمد بن عبد الملك بن الطفيل أبو بكر ، فيلسوف أندلسى ، صاحب رسالة « حى بن يقظان » و « أسرار الحكمة المشرقية » .

كادحة تعيش عيشة السوائم وقد قنعت باليسير اليسير ممايقوم بأود الحياة . . . إلى تجارات واسعة يديرها تجار جشعون . . إلى صناعات مزدهرة وفنون مزخرفة تلوّن مظاهر المجتمع بأزهى الألوان . . إلى حياة ماجنة تشع بالأضاليل والعبث والأهواء . . إلى حكماء وفلاسفة وشعراء تركوا لعالم الذهن فيضاً من الحكمة والفلسفة والشعر الممزوج برمزية الصوفيين . . إلى فرق وأحزاب وشيع اتخذت الدين وسيلة لمآرب سياسية خطيرة ومبادئ هدامة . . إلى ما شئت مما تتميز به عصور الفوضى والاضطراب .

ونحن نعلم أن فى عصور الفوضى تتفتح الأذهان ، وتنمو العبقريات . . . وقد كانت البيئة تتفاعل بحيوية عجيبة : كانت تنبض بجميع هذه الظاهرات وبمختلف هذه التيارات . . وكان التفسخ والانحلال يسودان قلب المجتمع الذى عاش فى ظلال قاتمة من حياة الكذب والملق والرياء . . نلمس هذا فى نثر الأدباء وشعر الشعراء الذين كانوا يتقربون إلى الملوك والأمراء بأماديحهم ، وهى أماديح – إلى معانيها اللطيفة ، وألفاظها المتخيرة ، وخيالها الخصب المجنح الذى يحلق فى الفضاء حتى ليدانى الكواكب والنجوم – لا تنبض بروح الصدق .. وقد أشار أحد شعراء ذلك العصر إلى مظاهر تلك الحياة وإلى روحها بقوله :

« لقد نسخ الوفاء ، وانعدمت المروءة ، ولم يبق منها إلا الاسم ، كالعنقاء والكيمياء » .

ويظهر أن علم الكيمياء كان فى عقول الكثيرين حتى فى عقول الصفوة المختارة من المفكرين علماً وهمياً حتى قرن بطير العنقاء .

ويتابع الشاعر وصف مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصر السهروردى فيقول :

« لقد صارت الأمانة خيانة ، والذكاء سفهاً ، والعدالة عداوة ، والإنسانية جفاء . . وانعكست آداب الخلق جميعاً بسبب هذا العالم البخيل ، والفلك عديم الوفاء ، فكل عاقل قد انتحى زاوية ، وكل فاضل قد صار مبتلى بداهية »[1] .

---

(١) هذا النص مترجم عن الشعر الفارسى بقلم الدكتور عبد المنعم محمد حسنين فى كتابه «نظام الكنجوى شاعر الفضيلة» ص ٦٨ والشعر للشاعر الصوفى عبد الواسع الجبلى .

هذه صورة عن البيئة الاجتماعية التى عاش السهروردى فى ظلالها . . وهى بيئة – إلى ترف مظاهرها – ذات جوّ موبوء ، وهذا الذى دفعه أن يبتدع فلسفة جديدة تنقذ العالم مما هو فيه – العالم الموبوء الذى عزفت نفسه عنه وانتابته الآلام من شروره . . فكان يعكس ما تنتهى إليه دراساته العويصة من فلسفة وحكمة على مايراه ويلمسه فى قلب المجتمع من ظواهر ، فيرى البون شاسعاً بين الواقع والمثاليات ، بين الحقيقة والخيال . . وقد زاد فى ألمه أن يكون الاصطراع والتناحر على أمور تافهة لا تتصل بجوهر الأشياء وحقيقتها الكبرى . . ولا سيما أنه رأى بعينيه ما يكابده الإنسان من جور وظلم أخيه الإنسان ، وما تكابد الطبقات التى يتألف منها مجتمعه من بؤس وشقاء ، وكيف أصبحت أسيرة التقاليد والخرافات وفريسة الوساوس والأهواء نتيجة لما كان يبثه بعض الدجالين الذين تمسكوا بقشور الدين دون لبابه ، وبعَرَضه دون جوهره .

نعم ، آلم السهروردى هذا الانهيار فى الخلق ، والتفسخ فى طبيعة المجتمع ، وحزت فى صدره تلك الحروب التى كانت تنشب الفترة بعد الفترة ، وهى – فى عقيدته – حروب تقوم على الأثرة والمنفعة ولا تلتمس حياة الرفعة والسمو ، الحياة التى ترتفع بالعقل البشرى وبالإنسان إلى عالم علوى قد خلا من النزعات والأدران . . وهذا ما جعله يزدرى بيئته ، ويضيق بجوها الخانق ، ويلتمس الخلاص لنفسه وروحه من عناصر الفوضى والانحلال والميوعة التى غامت على أفق وطنه الكبير فضرب فى الآفاق يلتمس الحكمة أنّى وجدها . . فى كل بلد وتحت كل كوكب ، ويؤثر أن يعيش فى غير عالمه مأخوذاً بعالم الإشراق الذى تكونت من أشعة نوره فلسفته ذات الإشعاع الباهر .

الفصل الثانى

السّهروردى فى عَصْره

١ – مولده ونشأته الأولى

. . . فى منتصف القرن السادس الهجرى ، بين سنتى ٥٤٥ و ٥٤٩ ﻫ (١١٥٠ – ١١٥٥ م) ولد شهاب الدين السهروردى فى قرية سهرورد ، وهى بليدة تقوم فى أعالى جبال فارس – العراق العجمى – من أعمال زنجان ، وزنجان منطقة خصبة تزهو بطبيعة جميلة باسمة ، ومناظر رائعة خلابة ، وأدغال ، وغابات كثيفة ، أخرجت غير واحد من أكابر الرجال بينهم الفقهاء والعلماء والمتصوفون . وكانت سهرورد أزهى قرى تلك المنطقة ، وقد نشأ فيها غير واحد من الفضلاء ، وكان الإمام شهاب الدين أشهرهم بما تميزت به حياته من ألوان .

نشأ الطفل شهاب الدين ، كأكثر أطفال القرية الذين يوجّهون منذ نشأتهم الأولى ، وجهة دينية ، فحفظ القرآن ، ودُرِّب على تلاوة الأوراد ، وكان يؤدى الصلوات الخمس بفرح نفسانى عميق ، لا يمنعه برد الشتاء القارس فى تلك المناطق الباردة أن يحذو حذو أبيه ومشايخه من القيام فى ساعة مبكرة لأداء صلاة الفجر بله صلوات التهجد والغفران وقيام الليل . .

كانت الصلاة عنده ، وهو صغير ، ليست ركوعاً وسجوداً وتلاوة سُوَر فحسب ، بل اتجاهاً كلياً نحو الخالق العظيم أن يأخذ بيده إلى طريق الخير ويوجه خطواته نحو الصراط المستقيم . .

تعلم ، وهو طفل ، القراءة والكتابة فى فترة قصيرة لم تطل ، وكانت إحاطته بهما بهذه السرعة ، موضع حديث القرية وما جاورها من القرى .

كان الجميع يتحدثون عن ذكاء الطفل وعن سيره فى طريق تختلف كل الاختلاف عن الطريق التى يسلكها أطفال القرية . .

وإذ بلغ مراحل الفتوة ، شعر من الأعماق أن هذه القرية التى نشأ فى

ظلالها لن تطمئن نزعاته إلى ما كانت تهجس به أخيلته . .

فقد ضاق بسهرورد . . أو ضاق به أطفال سهرورد الذين كانوا يريدون منه أن يجاريهم فى أهوائهم وعبثهم ، وأن يصعد معهم فى الجبال ويهبط الأودية يلعبون ويقنصون . . فكان حبه للعلم وتفتّق ذهنه اليقظ من البواعث الملحّة التى حفزته أن يترك بليدته إلى بلدة تكون فيها الدراسة أعم وأشمل . .

٢ – أساتذته

كانت « مراغة » وهى من أعمال أذربيجان ، من المدن التى استفاضت شهرتها بالعلم . . فخرّجت أكابر العلماء وأنبتت شخصيات فذة فى شئون الدين وفى علوم الأولين . . وكان عالمها الأشهر لزمن السهروردى ، هو الشيخ مجد الدين الجيلى ، وهو من أكابر العلماء الذين عُرفوا ببعد النظر وسعة العلم ، وقد أشرب قلبه بالحب الإلهى فتتلمذ عليه غير واحد من الأعلام كان فى طليعتهم الإمام فخر الدين الرازى .

وما كاد الفتى شهاب الدين ، التلميذ الناشئ المحب للمعرفة ، يسمع بعلو كعب هذا الرجل حتى هرع إليه يطلب العلم من وطابه . وكانت حلقة دروسه تضم مختلف الشباب ممن استهوى العلم أفئدتهم ، وكانوا من مناطق مختلفة وجنسيات متباينة ، فقد كانت حلقات دروس أولئك المشايخ الأعلام تقوم مقام الجامعات فى يومنا هذا ، وقد التقى ، فى حلقة الشيخ مجد الدين ، مع فخر الدين الرازى ، فكانا يستمعان إلى دروسه بكثير من الوعى دون أن تكون أية صلة سابقة بين التلميذين اللهم إلا هذه الصلة الجديدة ، صلة التزاحم على اغتراف علم الشيخ ، فقد كان الرازى مأخوذاً بدروس علم الكلام ، بينا كان السهروردى مأخوذاً بعلم الكلام والمنطق كمدخل للدراسات الفلسفية .

استهوت السهروردى دروس الفلسفة أكثر من بقية العلوم لمواءمتها نزعته ، وكان إلى فرط ذكائه ، وقوة حججه ، كثير الجدل ، وكانت مقدرته الجدلية

موضع حديث كل من عرفه أو دخل معه فى نقاش ، وهذا الذى دفعه أن يمعن فى دراسة الفلسفة لتقوى حجته على مناظريه .

وقد شعر بعد ملازمته للشيخ مجد الدين الجيلى ، وبعد أن حضر عليه زبدة دروسه ، أنه فى حاجة إلى أفق أوسع ، وكانت أصفهان ذات شهرة واسعة فى العلم أيضاً . . . من زنجان إلى أذربيجان إلى أصفهان يغشى مدارسها ويتصل بعلمائها ويبحث عن نفيس كتبها . . . وقد همته بصورة خاصة كتب الرئيس ابن سينا . نعم ، لقد درج على هذه الحياة منذ نشأته الأولى فما يكاد يسمع برجل له شهرته ، أو بكتاب له قيمته حتى يشد إليه الرحال .

فى هذه الفترة من بدء حياته المتأرجحة بين علوم الدين من جهة ، وعلوم الفلسفة من جهة ثانية ، وبين نزعته الدينية التى قادته إلى عوالم صوفية مشعة بالأنوار . . فى تلك الفترة من حياته ، أخذت الحلقات الصوفية تجتذبه إلى رحابها ، وقد تأثر أى تأثر بهذه الحلقات وبما كتبه الأئمة من المتصوفين فسار سيرهم ، وأخذ يرسم اختلاجاته النفسية فى رسائل تعبر عن نزعاته فى الدين والحياة والكون ، وهى مشربة بروح فلسفية تصوفية ، وقد أهدى هذه الرسائل ، إلى أصدقائه فى أصفهان . .

٣ — نبوغه المبكر

نشأ السهروردى نشأة أولئك الذين استهوتهم حياة العقل منذ نعومته أظفارهم وما زال حتى بلغ أوج هذه الحياة .

عانى فى سبيل الوصول إلى عالم الحق والذات الإلهية الكثير من العذاب والمشقة والعنف والجهد والإرهاق .

بدأ حياة التلمذة فى أروقة المدارس وحلقات الجوامع ، يستمع إلى الأئمة والشيوخ فى لهف وشوق . . . ولكن هذه الفترة من حياته لم تطل ، فسرعان ما تخطى عهد التلمذة ووصل إلى مصاف الأساتذة : فمن تلميذ حاد الذكاء ، شديد النهم إلى المعرفة ، إلى معلم مرشد ، وإمام من كبار الأئمة . ومن دروس

النحو والصرف والفقه والتفسير والمنطق ، إلى عالم التصوف ودرجات الفلسفة . . . يقرأ ويتأمل ، يجادل ويناقش ، يكتب ويؤلف ، يتقشف ويتفلسف . .

ولقد هال هذا النبوغ المبكر أساتذته الذين كانوا يضيقون بأسئلته ومناقشاته ، وبجدله وتخريجاته ، كان يحرجهم بمختلف الاستطرادات . . وكثيراً ما كان يبزهم بدرايته ويتفوق عليهم فى الفهم . .

تخطى ، فى برهة قصيرة ، كل من سبقه من أعلام الفكر وجهابذة المعرفة. واستطاع ، وهو فى شبابه ، أن يرسم خطوط فلسفته الإشراقية التى لم توطد ركائزها على ما كتبه الفلاسفة والمتصوفون فحسب ، بل على ما أحسه وشعر به ، فكانت « ذاته » وكان « انطلاقه فى سبيل المعرفة » من الحوافز التى دفعته إلى أن ينسى كل ما فى الكون فى سبيل الوصول عن طريق « التجرد » إلى الذات العليا .

قرأ ما كتبه فلاسفة اليونان وفلاسفة الفرس والهند ، وما كتبه المتكلمون [١] والمتصوفة من الإسلاميين ، وكوّن لنفسه فلسفة جديدة قام بعضها على هذا المزيج من الفلسفات ، وأكثرها على حياة « التفكير » و « التجرد » . . وقد خلص من « صوفيته » ومن شتّى « دراساته المنطقية » إلى نظرات فلسفية جديدة أملاها فى الكثير من رسائله وكتبه ، وكونت بمجموعها « الفلسفة الإشراقية » التى اعتبر زعيمها الأول ومؤسس مدرستها الكبرى .

---

(١) سمى العلم الذى يبحث فى العقائد : «الأدلة العقلية » ، والرد على المخالفين « علم الكلام » ، وسمى المشتغلون به « المتكلمين ». وقد اختلفوا فى سبب هذه التسمية فقال بعضهم . إنه سمى علم الكلام ، لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف فى العصور الأولى مسألة كلام الله وخلق القرآن ، فسمى العلم كله بأهم مسألة فيه ، أو لأن مبناه كلام صرف فى المناظرات على العقائد ، وليس يرجع إلى عمل . أو لأنهم تكلموا حيث كان السلف يسكت عما تكلموا فيه ، أو لأنه فى طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى الفلسفة فوضع للأول اسم مرادف للثانى ، فسمى « كلاماً » مقابلة لكلمة « منطق » (ضحى الإسلام ج ٣ ص ٩) .

٤ ـ أسفاره

كانت الأسفار والنقل فى مختلف الأقطار بعض هواياته ، فلا يكاد ينزل ببلدة جديدة حتى يبحث كما قلنا ، عن علمائها ونفيس كتبها ، بل عن أئمة الصوفيين يقبس من أنوارهم ما يسدد خطواته نحو المُثُل العليا، مُثُل الصوفيين الذين يتجردون عن كل ما فى الحياة من مباهج فى سبيل الوصول ، على قدم التجرد ، إلى مشاهدة أنوار الحق .

ومن أصفهان إلى ديار بكر ، وقد أنس عند أمير خربوط عماد الدين قره أرسلان الذى كان يحكم تلك المناطق ، كل مكرمة وتقدير فأهداه كتابه « الألواح العمادية » .

وبالرغم من الرعاية التى أحيط بها فى ديار بكر وخربوط فإن مقامه فى هاتين البلدتين لم يطل ... إن نفسه نزّاعة إلى آفاق أوسع . . قد تكون المعرفة التى تنشدها نفسه هى فى غير هذه المناطق . . وكانت نفسه تعتلج بالكثير من التفاعلات ، ولا سيما بعد أن أسلم قلبه إلى تلك القبسات العلوية ، فهو يبحث عنها فى يقظته ومنامه . . وكانت لا تمر دقيقة من حياته دون أن يستلهم شيئاً جديداً . . وقد عبر لنا عن قلقه وحيرته وهمومه وآلامه بهذه الكلمة التى ترينا أى رجل هذا الذى ينشد المعرفة :

« وها هوذا .. قد بلغت سنى إلى قريب من ثلاثين سنة ، وأكثر عمرى فى الأسفار والاستخبار والفحص عن مُشاركٍ مطّلع على العلوم ، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ، ولا من يؤمن بها » .

إن هذه السنوات التى قضاها فى الأسفار ، لم ترو غلّته ولم تشبع نهمه . لقد قرأ كثيراً ، واتصل بأعلام متفوقين ، وغشى حلقات العلماء وأروقة الصوفيين ، وعاش لحظات طويلة مع الفلاسفة وأقطاب الحكمة . . ومع ذلك كان يحس فى قرارة نفسه ، أن أشياء عويصة لا تزال مغلقة عليه . . . إنه يريد

أن يطوّف فى مختلف أنحاء الدنيا ليصل إلى مايكشف له هذه الأمور المغلقة ، وينتزع من قلبه هذه الغشاوة التى تعقد سحبها فى كل خلية من خلايا وجدانه العقلى .

إن المناقشات التى أدارها مع مَن اتصل بهم فى رحلاته لم تطمئن نزعاته ، إنه يريد أن يصل إلى ما هو أسمى فى حقيقة الكون ، فى النبوات ، فى الذات الإلهية . . .

ولقد كان فى مجادلاته ومناقشاته أكثر عنفاً منه فى تأملاته . . كان لا يتقيد فى مناقشاته بالنصوص بل كان يعتمد على الحجة والعقل . . إنه يريد أن يأتى بما لم يأت به غيره من المتقدمين . . وحين كان يضيق بالمجادلات العميقة كان يلجأ إلى الوحدة والتأمل . . ففى عالم الوحدة والتأمل كانت تنكشف له حالات ترتفع به إلى تلك الآفاق الروحية التى يجد فى رحابها بعض ما يطمئن نزعاته ويهدئ من ثوراته . .

لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق ، وأصبح السهروردى وهو فى هذه السن ، من النوابغ والأعلام . . وما زال يتنقل من بلد إلى بلد حتى حط عصا التسيار بمدينة حلب .

٥ ــ آراء العلماء فيه

ا ــ آراء الأقدمين :

ترك لنا معاصروه الكثير من الفقرات التى تكشف لنا عن بعض خصائصه الذاتية والعقلية ، وقد يكون من الأمانة أن ننقل هنا بعض هذه الفقرات . .

فقد وصفه الشيخ فخر الدين الماردينى [١] ، وهو عالم متبحر ، وطبيب قد تصدى لشرح كتب ابن سينا ، وكان السهروردى قد قصده فى ماردين وناقشه مناقشات حادة . قال الشيخ فخر الدين :

(١) ولد فى ماردين فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٥٩٤ ومات فيها سنة ٦٧٧ هـ .

« ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ، لم أجد أحداً مثله فى زمانى . . إلا أنى أخشى عليه ، لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه ، أن يكون ذلك سبباً لتلافه» .

وقد صدقت فراسة هذا الشيخ وسنشير إلى ذلك فى نهاية هذا الفصل . .

وفى « معجم الأدباء » لياقوت (٥٧٥ — ٦٢٦ ﻫ) :

« شهاب الدين أبو الفتوح السهروردى ، كان فقيهاً ، شافعى المذهب ، أصوليًّا ، أديباً ، شاعراً ، حكيماً ، متفنناً ، نظاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه » . . .

وفى « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة (٥٩٥ — ٦٦٨ ﻫ) قوله :

« كان السهروردى أوحد أهل زمانه فى العلوم الحكمية ، جامعاً للفنون الفلسفية ، بارعاً فى الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، جيد الفطرة ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله » .

وقال ابن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١ ﻫ) :

«كان السهروردى من علماء عصره ، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلى إلى أن برع فيهما » .

وردد غير واحد من معاصريه كلاماً مماثلا لما قدمناه ، وقد رأينا الاكتفاء بهذه الفقرات التى تسجل رأى بعض الأئمة والمؤرخين بعبقرية هذا الشاب .

* * *

ب — آراء المحدثين :

وحين عرض له معاصرونا ودرسوا آراءه وكتبه وقارنوا بين فلسفته وفلسفة من تقدمه رأوا فيه هذا العقل الإشراقى المتحرّر الذى لم يقف عند هذا الحدود الضيقة من عرضه للمشاكل العقلية بل كان واسع الآفاق ، حرّ النزعة واعتبروه[(١)] الزعيم الأول للمدرسة الإشراقية التى وضع أسسها .

ولطائفة من المستشرقين الفضل الأكبر فى الكشف عن نواحى عبقريته ، فقد نشروا بعض كتبه ولخصوا آراءه الميتافيزيقية وفلسفته الإشراقية ، وعرضوا عرضاً شاملا لنواحى حياته . . . وقارنوا بين آرائه وآراء من تقدمه من فلاسفة

(١) الدكاترة : أحمد أمين ، عبد الرحمن بدوى ، إبراهيم مدكور ، سامى النشار وغيرهم .

الإغريق والفلاسفة المعاصرين. وكان فى طليعة المستشرقين الذين اهتموا بآرائه وكتبه « بروكلمن » و « أ. ريتر » الألمانيان ، و « فان دن برج » المستشرق الهولندى الذى كتب عنه فصلا فى «دائرة المعارف الإسلامية» وترجم كتابه «هياكل النور» إلى الهولندية ، و « ماسينيون » الذى عرض له فى أثناء بحوثه عن الحلاّج ، و « باول كراوس » الذى كتب عنه كثيراً ونشر بعض رسائله ولا سيما رسالة « أصوات أجنحة جبرائيل » . وكذلك « هنرى كوربان » المستشرق الفرنسى الذى اهتم بالغ الاهتمام بحياة السهروردى وفلسفته فنشر كتاباً ضمّ رسائله الكثيرة بعنوان «الحكمة المشرقية » . وشخصية السهروردى وكتبه تمثلان عند « كوربان » لحظات جوهرية فى تاريخ الفكر فى الإسلام — عدا كثيرين ممن فتحوا نافذة واسعة للمؤلفين العرب ليبحثوا كتبه وشخصيته فى ضوء جديد من البحوث الفلسفية المتحررة .

وهكذا ، فقدبدأت الدراسات تكثر بين مؤلفى الإسلام والمستشرقين حول شخصية هذا الصوفى الفيلسوف الذى مرّت حياته القصيرة ، من تحت قنطرتى الحياة العقلية والحياة الروحية ، بصور متباينة سواء فيما يتعلق بشخصه أم آرائه . . وإنها لصور تبدو تاره جميلة من حيث عبقريته الملتمعة ، وتارة قاتمة محزنة بالنهاية الأليمة التى انتهت بها مأساة حياته .

٦ — صورته الجسمانية

بعد أن طوّف السهروردى فى مختلف البلدان تناهى إليه صيت حلب كمركز من مراكز الثقافة الإسلامية ، وكانت حلب ، حين اعتزم السفر إليها ، بعد أن مكث مدة فى ماردين مع شيخها الطبيب العالم فخر الدين ، تحت حكم الملك الظاهر غازى [١] بن صلاح الدين الذى عمل على تعزيز الحركة

---

(١) الملك الظاهر الأيوبى (٥٦٨ –٦١٣ هـ ١١٧٣–١٢١٦ م) ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى من ملوك الدولة الأيوبية . ولد بالقاهرة وأعطاه والده مملكة حلب سنة ٥٨٢ . فتولاها=

العلمية التى بدأها وزيره القاضى بهاء الدين بن شداد[1] مع نور الدين محمود زنكى ، وذلك بإنشاء المدارس ورعاية العلماء مما جعلها تستعيد مكانتها السامقة فى عهد الحمدانيين .

وقد كانت المدرسة الحلوية أشهر مدارس حلب آنئذ ، تضم كبار العلماء من فقهاء وأصوليين ومتكلمين وأدباء وشعراء . .

وكانت شهرته قد سبقته إليها ، وحرص العلماء ، حين دخوله المدينة ، أن يتعرفوا إلى هذه الشخصية العجيبة التى بلغت هذه المرتبة من العلم وهى لا تزال فى هذه السن المبكرة .

ولم يكن مظهره مما يلقى الهيبة والاحترام فى نفوس مستقبليه . . وللمظهر تأثيره البليغ فى نفوس الكثيرين حتى من طبقة العلماء !

كان الحكيم شهاب الدين السهروردى شابًّا غض الإهاب ، ولكنه أهمل نفسه أو كاد ، وبلغ الإهمال به حتى كان ، على حد قول بعض من أرّخ له — « زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له ثوباً ولا جسما ، ولا يداً ، ولا يقص ظفراً أو شعراً » ، وزادوا على ذلك فقالوا : « إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه وإن كل من يراه يهرب منه » .

إن هذا الوصف قد يوائم حقيقة ازدرائه بالمظاهر التى يعتز بها بعض الناس . . .
أما قبوله أن تكون ثيابه دنسة — وهو الصوفى الورع — فهذا فى اعتقادى ، بعض مبالغة الرواة أو بعض إرهاصات خصومه الفقهاء !

فالواقع ، أن السهروردى كان لا يعنى بالمظاهر ، فهذه ناحية اتفق عليها أصدقاؤه وخصومه معاً . . ولكن ليس للدرجة التى أشرنا إليها ، فقد وصفه تلميذه المحب الشهرزورى صاحب كتاب « نزهة الأرواح » بقوله :

= واستمر إلى أن توفى فى قلعتها . وهو مدفون فى الجامع الواقع تجاه قلعة حلب . وكان حازماً مهيباً .

(١) ابن شداد (٥٣٩ — ٦٣٢ هـ ١١٤٥—١٢٣٤ م) يوسف بن رافع بن تميم الأسدى ، بهاء الدين ، أبو المحاسن ، بن شداد ، مؤرخ ، من كبار القضاة ، ولد بالموصل ، ونشأ بحلب ، وولاه السلطان صلاح الدين قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه ، ثم ولى قضاء حلب ، فاستمر إلى أن توفى فيها ، وهو شيخ المؤرخ ابن خلكان . ومن كتبه « النوادر السلطانية » و « تاريخ حلب » و « دلائل الأحكام » و « ملجأ الحكام عند التباس الأحكام » و « فضل الجهاد » .

« إنه كان مستوى القامة ، يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة ، وإنه كان يميل إلى السماع — يريد الموسيقا — وكان يبدى احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية ، وكان — فى بعض الأحيان — يلبس ثوباً واسعاً طويلا ، وعمامة زاهية الألوان ، و — أحياناً أخرى — كان يبدو على العكس من هذا ، فى ثياب مهلهلة . . ومراراً كان يقتنع بارتداء خرقة الصوفية » . .

وقد روى ابن رقيقة هذه الملحة الطريفة فقال :

« كنت أنا وإياه نتمشى فى جامع " ميّا فارقين " وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء ، وعلى رأسه فوطة طويلة ، وفى رجليه زربول[1] ورآنى صديق لى ، فأتى إلى جانبى وقال "ما جئت تماشى إلا هذا الخربندا "[2] فقلت له : اسكت هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردى ، فتعاظم قولى ، وتعجب وانصرف ! »

وبالرغم من هذا الإهمال لمظهره فقد أحاط به العلماء ، يتعرفون إليه ويرحّبون به

٧ — مأساته

هبط السهروردى حلب ونزل بالمدرسة الحلوية ، وأخذ يحضر كتلميذ متواضع دروس شيخها الشريف افتخار الدين ، يريد أن يقبس من شيخ حلب أنوار العلم ومصباح الهداية مما لم يصل إلى سمعه . . ومرت به الأيام وهو يستمع ، فشعر أنه لم يفد شيئاً . . وبدأ حياة المناظرة والجدل مع أستاذه ومع فقهاء حلب وكانوا يكوّنون عنه فكرة سيئة ، وبدأت آراؤه وأقواله تنفذ إلى البيئات العلمية فى المدارس والجوامع والمنتديات . وأصبح له شأنه ، أحبه أناس وكرهه آخرون ، شأنه فى ذلك شأن ذوى المواهب الفذة الذين لا يكادون يظهرون حتى تتألب عليهم عناصر الجهل والغباء تعمل على إطفاء نورهم ووأد ملكاتهم وعبقرياتهم .

(١) زربول : أصلها رزبون : أى نعل ويستعملها العوام كلمة للسب .

(٢) خربنده : كلمة فارسية معناها مكارى ، حمار .

وقد تطور الجدل العلمى إلى خصومة رعناء .

أخذ الفقهاء يتقوّلون عليه أشياء لم يقلها ، وينسبون إليه آراء لم يفه بها . . واستطاعوا أن يثيروا عليه نقمة الرأى العام ، ولا سيما بعد أن ناظرهم فى عدة مسائل فلم يثبت له أحد منهم ، وظهر عليهم كلهم . . عدا شيخه المفضال — شيخ المدرسة الحلوية — الذى ظهر فضله له فقرّب مجلسه وأدناه . .

وقد زاده هذا التقرب من الشيخ بغضاً وضغينة من خصومه الذين أخذوا يقلبون علمه جهلا ، وهديه ضلالا ، ويقينه شكًّا ، وإيمانه كفراً ، وتصوفه شعوذة ، وفلسفته هرطقة . وكل حسناته سيئات !

وأكثروا من تشنيعهم حين أخذ الشيخ يمهد له عند السلطان . الذى حرص — بعد هذه الضجة التى ثارت حوله ، وبعد أن أفرطوا فى الحط من مكانته العلمية . وبعد أن اتهموه بالزيغ وانحلال العقيدة — حرص الملك الظاهر أن يتعرف عليه وأن يلمس مدى الصدق فى أقوال علماء مملكته . ورثة الأنبياء ومصابيح الأمة الهداة !

* *

استقبله الملك الظاهر فى قصره الجميل ، ورحّب به أجمل ترحيب ، ودارت الأحاديث حول الضجة القائمة حوله ، فما كاد السهروردى يفيض فى الحديث ، حتى لمح فيه سمو الحكمة وإشراق الذهن . . وتبيّن البون الشاسع بين عقلية « علماء المملكة » وبين عقلية السهروردى المتحررة من كل قيد . . وهنا . . . رأى المليك أن يكون الحكيم شهاب الدين من خلصائه ، فقربه إليه وأنزله أعظم منزلة من نفسه . .

ولكن هذا العطف السامى زاد قلوب العلماء عليه حقداً ، فأخذوا يشنّون عليه الحملة تلو الحملة ، ولم يتركوا نقيصة من النقائص — عدا رميه بالإلحاد والزندقة — إلا ألصقوها به !

كان السهروردى فى وادٍ . . وكان خصومه الفقهاء فى وادٍ آخر . . إنه جاء مدينة حلب ليتابع رسالته الإشراقية ، ليكتب ما اختزنه صدره من آراء واتجاهات ، ليبدع فى الفلسفة الإسلامية أصدق النظريات ... وبعد ... ليتابع

رحلاته إلى مختلف عواصم الدنيا – فى الشرق وفى الغرب – يقف على مدى تطور الفكر ويستزيد علماً ومعرفة، شأنه فى ذلك شأن الأفذاذ الذين لا يُروى نهمهم من العلم . . .

إن صدره ممتلئ بالآمال الجسام . . لقد وعى فلسفة الإغريق وفلسفة الهند وفارس والفلسفة الإسلامية على مختلف صورها . . وهو يريد أن يبدع ، من هذا المزيج، فلسفة جديدة رسم خطوطها الواضحة فى فلسفته الإشراقية . .

إنه بلغ هذه المرتبة العلمية وهو فى الثلاثين من عمره . . فماذا يكون شأنه حين يبلغ الستين مثلا ؟

لقد وضع فى حلب برنامجاً ضخماً لحياته الفلسفية وللمؤلفات التى ستخطّها يراعته . . ولكن إرهاصات الفقهاء ، لم تقف دون إبداعه فحسب بل ائتمرت على حياته . . لقد استطاعوا أن يثيروها عليه حملة شعواء وكادت تنشب فيه أظفارها لولا حماية الملك له . . وقد انشطر الرأى العام الحلبى حوله شطرين : هذا معه وذاك عليه .

وعلامَ ؟

إن انتصاره عليهم حفزهم أن يزيلوه من الوجود .. ولا سيما أن هذا الانتصار قد مسّ مركزهم فى المجتمع ولدى الملك وعند الدهماء بصورة خاصة .

وألّفوا وفداً لمقابلة الملك الظاهر . . وجرّوا معهم جمهوراً كثيفاً من الدهماء للتأثير فيه . . وقد استمع إليهم بصدر رحب وأخذ يناقشهم بهدوء ورفق فذهبت محاولتهم عبثاً . . لقد طلبوا من الملك أن يصدر أمره بهدر دمه فهاله الطلب . . كيف يهدر دم شاب عالم متصوف رأى فيه إنساناً أشرِب قلبه بحب الله ، وصوفيّاً يُعدّ فى مرتبة كبار المتصوفيين وقد سمع منه آيات بلغت السمو فى الإشراق ؟! . . .

لقد هال الملك الظاهر أن يصبح الفكر المشرق هزأة بيد أنصاف العلماء ... فردّهم من حيث أتوا ، ولم يلتفت إلى هذه الإرهاصات التى تعطل حرية الفكر وحيوية الإنتاج والإبداع . .

* * *

وضاق الفقهاء كل الضيق من موقف الظاهر منهم وحمايته للسهروردى . .

فماذا يعملون ؟

لجأوا إلى أبيه الملك صلاح الدين يستفزون عاطفته الدينية ، وسيرة صلاح الدين مشهورة بالتقى والورع وببغضه كتب الفلاسفة وأرباب المنطق ، ومما أوهموا به صلاح الدين قولهم إن صحبة الملك الظاهر للسهروردى ستكون مدعاة لفساد عقيدته وعقائد الناس ، وزادوا فى التهويل حين ضمنوا رسالتهم العبارة الآتية « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » !

فما كان من صلاح الدين إلا أن كتب إلى ابنه بإبعاد السهروردى ونفيه . . ولكن الملك الظاهر ، وهو عليم بسر هذه المأساة التى أجادوا تمثيلها ، لم ينفذ أمر أبيه .

فثار اللغط من جديد . . وضجّ العلماء ، وانقسم الناس قسمين : قسم معه وقسم عليه .

قال القاضى ابن شداد :

« أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه والله أعلم » ! .

نعم ، ضج العلماء من سلوك الظاهر وتحيّزه للرجل الذى حجّهم وكشف الكثير من جهالتهم ، وكان أكثرهم غيظاً وضجيجاً ، وأشدّهم نقمة الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا حميد . . فما كان منهما إلا أن أثارا ثائرة العلماء فجمعوا جموعهم من جديد وطلبوا إلى الملك الظاهر فى إلحاح شديد أن ينفذ أمر أبيه . . ويظهر أنهم أحرجوه عند أبيه وعند سواد الشعب معاً . ورأى أن خير طريقة للخروج من هذا الإلحاح أن يعقد مجلساً للمناظرة فيما هم مختلفون فيه مع غريمهم لاعتقاده أن السهروردى سيحجّهم وينتصر عليهم وتهدأ ثائرة هذه الضجة . . واستمهلهم أن يكتب إلى أبيه بذلك ، فرضوا بهذا الحل ، وكتب إلى أبيه يطلب منه الموافقة على عقد مجلس للمناظرة قبل أن ينفيه ، فوافق صلاح الدين على هذا الاقتراح . .

وذاع الخبر فى المدينة . . وفى حلقات المدارس وأروقة الجوامع ... وسرى

فى نفوس العوام سريان النار فى الهشيم ، وباتوا ينتظرون الحكم بالموت على هذا الزنديق المارق بلهف وشوق ... وقد حكموا هم عليه بالموت سلفاً قبل أن ينعقد مجلس المناظرة وقبل أن يصدر أمر السلطان بهدر دمه... هذا هو منطق العوام... وكثيراً ما تلعب الأهواء – ولا سيما الأهواء التى لها صلة بشئون الدين – دورها الخطير فى قضايا الفكر . . .

وبعد أيام انعقد المجلس ، واحتشد العلماء ... وأخذت الأسئلة تنصبّ عليه من كل صوب ،وكان يجيب عنها بهدوء واتزان ، ويدعم أجوبته بالبراهين والحجج – براهين أصحاب المنطق وحجج الفلاسفة وروحانية المتصوفين الذين يستمدون قواهم من روح الله . . .

ودحضت هذه الحجج والبراهين ... فالفلسفة لون من الضلال والزيغ ... ومن اشتغل بها كان فاسد العقيدة ... وارتفعت الأصوات فى وجه السهروردى تنكر عليه الاستدلال بالمناطقة فى مناظرته ... ولم تكن حججه مستمدة من أقوال الفلاسفة بل من صميم الدين ... ومع ذلك فقد اعتبروا حججه سفسطة ... فمزج العلوم الشرعية بالمنطق من البدع والمنكرات – بهذا المنطق كانوا يجادلونه ، ومع ذلك فقد تغلب عليهم وأفحمهم فى جميع القضايا التى أثاروها ... ولما طال الجدال بدون أن ينتهى إلى نتيجة وجهوا إليه السؤال الآتى :

«قالوا : ... إنك قلت فى بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبيًّا . . وهذا مستحيل .

قال : وما وجه استحالته؟ فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شىء » فلم يفرق لسائليه بين الممكن فى حد ذاته ، والممكن الذى أخبر القرآن بأنه لم يقع .

ولم يتركوه يدلى برأيه فوقفوا عند هذا الجواب وحكموا عليه بالكفر وجردوه من الإيمان واتهموه بانحلال العقيدة والتعطيل وسرعان ما نظموا وثيقة كفره وأذاعوها على الناس وهى تفتى بهدر دمه . .

أين هذه الوثيقة ؟ إن جميع من أرخ للملك الظاهر أو للسهروردى لم يوردوا نصها ، واكتفوا جميعهم بالإلماع إليها .

وهكذا فقد نجحت المؤامرة ، ورمى السهروردى بالكفر والتعطيل .

وحكم عليه بالموت .

وقد تأثر الملك الظاهر لهذه النهاية . حاول أن يصونه من دسائس الفقهاء وأن يحميه من مؤامراتهم ، ولكن محاولته ذهبت بدداً . . وشاءت إرادة الله الذى لا يمتنع عليه شيء حتى خلق النبوات أن يكون مصرع هذا الحكيم على يد من اصطفاه وفضله على الكثيرين . . فقد أذعن الملك الظاهر إلى فتوى العلماء وصدرت إرادته بتنفيذ الحكم !

ولكن كيف ينفذ الحكم ؟

أيقتل أم يصلب أم يسلم إلى خصومه وأتباعهم يقطعون جسم هذا الكافر الزنديق إرْباً إرْباً ؟

يخيّل إلينا أن الملك الظاهر طلب من صديقه الفيلسوف أن يختار ميتته ، فطلب أن يحبس فى مكان ما ، ويمنع عن الأكل والشرب إلى أن يموت . .

وكأنما أراد السهروردى أن يمتحن نفسه ، وأن يحقّق نزعاته الصوفية بهذه الميتة التى أرادها له المتنطعون . . فحياة الصوفيين لون من العذاب ، أو هى الفناء فى سبيل الحقيقة العليا . وليس أحب إلى نفسه من أن يمتنع عن الأكل وعن الشرب أياماً . . وأن يعيش زاهداً متقشفاً إلى أن يلقى ربه . .

لقد اختلفت الروايات فى مصرعه . . .

فى رواية : أن الملك الظاهر سجنه ثم خنقه فى سجنه بقلعة حلب .

وفى رواية أخرى : أن السلطان أمر بقتله وصلبه أياماً .

وعن سبط بن الجوزى فى تاريخه عن ابن شداد أنه قال :

« لما كان يوم الجمعة ، بعد الصلاة فى العاشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردى ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه »[1] .

نعم ، تفرقوا عنه وقبعوا فى دورهم ينكرون هذا الطغيان الذى مس حرية الفكر .

---

(١) روى بعض معاصريه أنه حين علم بصدور الحكم بقتله أخذ ينشد :

أرى قدمى أراق دمى وهان دمى فهـا ندمى !

وقد تأثر الملك الظاهر وندم على فعلته . . وحقد كثيراً على من جرّوه إلى هذا المأزق الحرج الذى أودى بحياة هذا الفيلسوف الحكيم الذى تجرد عن الدنيويات ، وكتب فى عهد شبابه أصفى التأملات .

ندم الملك ، ولكن ما عساه يفعل انتقاماً لذكراه ؟

يقول المؤرخون :

« إنه نقم على جميع من أفتوا بقتله ، فقبض عليهم ونكبهم وصادر جماعة منهم بأموال عظيمة» .

فهل أرضى بفعلته هذه أنصار السهروردى ومريديه ؟

ربما .. ولكن هيهات أن يكون قد انتقم للفكر بعمله هذا ،وستظل ميتة السهروردى لطخة سوداء فى تاريخ الظاهر الأيوبى على ما امتاز به حكمه من حسنات[١] .

---

(١) وبعد موته كتب كاتب على قبره ، بعد دفنه بظاهر حلب ، البيتين التاليين :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة مكنونة قد براها الله من شرف

فلم تكن تعرف الأيام قيمته فردها غيرة منه إلى الصدف

وقبره اليوم معروف ، وهو بلصق دار البريد القديمة المتخذة مركزاً لشرطة قسم « باب الفرج » أحد أحياء مدينة حلب . وذكره فى هذه المدينة لا يزال متصلا وإن حرفت العامة اسمه وقالت : بوابة « السارى وردى » بدل من بوابة السهروردى .

الفصل الثالث

جوانب السهروردى

١ ـ نزعته الصوفية

فى الفترة القصيرة التى عاشها السهروردى ، وقد عرفنا أن دمه قد هدر وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ـ فى هذه الفترة القصيرة استطاع أن يفتح مجرى طويلا فى حياة العقل .

فقد نزع منذ صغره نزعة المتصوفين الذين يزدرون كل مظاهر الحياة ، وتعزف نفوسهم عن كل مباهجها ، ويعيشون حياة الزهد والتقشف ، همهم الخلاص مما هم فيه . . . من « شرط الوجود الإنسانى الضيق المتهافت المحدود لبلوغ درجة الخلود الأبدى والعيش السرمدى ونيل رتبة كونية إلهية » فقد رأى فى صوفية الحلاج الذى اندفع وراء النور الإلهى هذه الأضواء الجميلة التى اجتذبته إلى عالمها ، فسرعان ما سعى وراء هذا العالم المغلق ، فلبس لباس الصوفيين مظهراً وحقيقة ، وتجلبب جلبابهم ، وطرّس على آثارهم ، وشغل قلبه بكل ما يوصله إلى الفيض الإلهى . . .

« تباركت ربنا خالق النور ، ومبدأ الوجود ، ارزقنا شوق لقائك ، والصعود إلى جناب كبريائك ، واجعل ذواتنا من الطاهرات الكاملات ، فالفارقات العائدات إليك ، إنك ولى الأيْد[١] وصاحب الطول[٢] العظيم المجيد » [٣] .

ولكن هذه الحياة الصوفية التى كشفت له الكثير من العوالم لم تشبع نهمه

---

(١) الأيد : القوة .

(٢) الطول : القدرة .

(٣) فاتحة كتاب « التطويحات اللوحية والعرشية » ص ٢ من مجموعة « فى الحكمة المشرقية » للسهروردى ـ نشر هـ . كوربان .

إلى المعرفة فقد حاول عن طريق العقل ، أن يصل إلى ما لم يصل إليه غيره من المتصوفين ومن الفلاسفة والمتكلمين . فعكف على دراسة حياتهم وقراءة كتبهم ومناقشة أقوالهم دراسة فهم وتدبّر وتأمل دفعته إلى أن يرفض الكثير من الآراء بعد نقدها وغربلتها . . .وما زال إلى أن ارتضى لنفسه نزعة جديدة وفلسفة جديدة عدّها لباب الحكمة وفيضها المشرق .

ورأى فى حياة الفلاسفة الذين عاش معهم ، عن طريق الفكر والروح ، الصفوة المختارة من أجناس البشر . . .فكانت « إنسانيته المشرقة » أبرز شىء فى حياته الصوفية والفلسفية معاً . فالفلاسفة عنده « رجال أسرة واحدة ، وفروع شجرة مباركة بما فيها من ثمار وخيرات ، فأمبدوقل ، وفيثاغورس ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس ، و بوذا وهرمس ومزدك ومانى ، و إن انتسبوا إلى شعوب مختلفة هم أبناء الإنسانية أولا و بالذات ، ورسل السلام والإصلاح » [(١)] .

على أن امتزاج روحه بروحهم ، من ناحية التأمل والتفلسف ، ورؤية الحياة على حقيقتها ، لم تمح شخصيته ، بل كان كأولئك الفلاسفة الأفذاذ الذين يتناولون الفكرة لتمحيصها على مختلف الوجوه ، وكثيراً ما ينقدونها ليقيموا على أنقاضها فكرات جديدة تكون أكثر بهاء وأشد وهجاً و إشراقاً .

فالفلسفة اليونانية التى نقلها العرب ، ولا سيما المنطق الأرسطاليسى الذى ظل فترة طويلة « قانون العقل الذى لا يرد والمنهج العلمى الثابت ، تعاريفه وحدوده ثابتة ، وأحكامه وقضاياه مسلمة ، وأقيسته منتجة لليقين وموصلة إلى العلم من حيث هو »[(٢)] — إن هذا المنطق الممزوج بإلهيات الفلاسفة قد اعتبره الكثير من الفقهاء والأصوليين والمتكلمين مما يخالف عقائد المسلمين ، وقد تصدى لنقده كثيرون وأقاموا منهجاً جديداً استمدوا أصوله من روح إسلامية بحتة . . .

وقد وقف السهروردى إزاء هذا الصراع الفلسفى موقف الباحث المفكر الذى يناقش الفكرة من حيث هى مجردة عن كل لبس وغموض — وقف من

---

(١) « حكمة الإشراق » ص ٣٧١ .

(٢) « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » لعلى سامى النشار ص ٣

المنطق الأرسطاليسى مثلا موقفاً مزدوجاً ، رفضه أولا ، ثم وضع منطقاً جديداً ثانياً وهو بهذا قد جعل التفكير الحر أساس بحوثه ، وقد دعم لون تفكيره بذوق صوفى « لم يحصل لى أولا بالفكر ، بل كان حصوله بأمر آخر . . . ثم طلبت عليه الحجة »[١] أى أنه حصل عليه بالذوق ، ثم حاول البرهنة عليه نظرياً .

لقد أقام السهروردى تصوفه على دعائم فلسفية . . أو أنه — وهذا الأصح — قد أقام دعائم فلسفته على إشراقات صوفية ، فما من فكرة أو حالة عرضت له إلا أعمل فيها روحه وذوقه وفلسفته ، وقد سمى الكثير من أبحاثه الجديدة «ضوابط إشراقية » ففى كتابه «حكمة الإشراق » يقرر أن بحوثه تبدأ على سياق يبنى على الذوق والكشف ومشاهدة الأنوار بخلاف سياق المشائين الذى يبنى على البحث الصرف .

قرأ الفلسفة اليونانية قراءة درس وتبصر ، وقايسها على غيرها من الفلسفات ، وأعطاها رفيع منزلتها ، ثم عكس عليها هذه الأضواء من روحه وذوقه وكشفه ونزعاته . . .وإذا هو ينقض الكثير من أسسها ليقيم على أنقاضها فلسفة جديدة أطلق عليها أئمة الفكر من شرقيين وغربيين « الفلسفة الإشراقية » واعتبروا السهروردى مبدعها وواضع أسسها ومدرستها .

ما هى خطوط هذه الفلسفة ؟

٢ — فلسفته

إن مبدأ الفلسفة الإشرقية وأساسها الأول — « أن الله نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، فمن نوره خرجت نوار أخرى هى عماد العالم المادى والروحى ، والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها»[٢] .

فالإشراق ، بمدلوله العميق ، هو «الكشف » أى ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالإشراقات على الأنفس عند تجردها .

---

(١) «شرح حكمة الإشراق» ص ١٦ .

(٢) « هياكل النور » ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ . « والفلسفة الإسلامية » لإبراهيم مدكور ص ٦٠ .

لقد شغل السهروردى بالإشراق عن كل شىء فى الحياة — وإنا لنلمس نفحات هذه الفلسفة فى الكثير من كلماته ودعواته التى كان يرددها فى خلواته :

« الإشراق سبيلك اللهم ، ونحن عبيدك
« نعتز بك ، ولا نتذلل لغيرك
« لأنك أنت المبدأ الأول ، والغاية القصوى
« منك القوة وعليك التكلان . . .
« أعنّا على ما أمرت
« وتمم علينا ما أنعمت
« ووفقنا لما نحب ونرضى
إلخ. . . . . »[1] .

إن « الإشراق» هو سبيله إلى الفيض العلوى — هذا الفيض الذى لا يتجلى إلا على من أشرب قلبه بحب الحكمة ... وقد أحب السهروردى الحكمة ومزج نفسه بها حتى لقب بالحكيم ... ولا يطلق لقب الحكيم عنده إلا على من له مشاهدة للأمور العلوية ، وذوق مع هذا وتأله .

ويرى أن أول الشروع فى الحكمة :

١ — الانسلاخ عن الدنيا
٣ — مشاهدة الأنوار الإلهية
٣ — ما لا نهاية له[2]

لقد قرن السهروردى الفلسفة إلى التصوف كما قلنا ، وأطلق على الفيلسوف المتصوف لقب « الحكيم المتأله » وهو عنده أن يكون على ارتباط وثيق بالصوفى الذى يتذوق. . . وإلى هذا أشار فى كتابه « حكمة الإشراق » أن كتابه هذا «لطالبى التأله والبحث ، وليس للباحث الذى لم يتأله ولم يطلب التأله فيه نصيب .. ولا نباحث فى هذا الكتاب ورموزه إلا مع المجتهد المتأله ، أو الطالب للتأله ، فمن أراد

(١) « المشارع والمطارحات » ص ١٩٦ .
(٢) « المشارع والمطارحات » ص ١٩٥ ، ١٩٦ تحقيق ه . كوربان .

البحث وحده فعليه بطريقة المشّائين. فإنها جنة للبحث وحده، محكمة، وليس لنا معه كلام ومباحث فى القواعد الإشراقية، بل الإشراقيون، لا ينتظم أمرهم دون سوانح نورانية » [١] .

ويشرح لنا هذه الفكرة، بوضوح أشمل فيقول :

« . . . وفى الجملة (الحكيم المتأله) هو الذى يصير بدنه كقميص يخلعه تارة ويلبسه أخرى . . . ولا يعد الإنسان فى الحكماء ما لم يطّلع على الخميرة المقدسة، وما لم يخلع ويلبس، فإن شاء عرج إلى النور، وإن شاء ظهر فى أى صورة أراد . . وأما القدرة فإنها تحصل عليه بالنور الشارق عليه . ألم تر أن الحديدة الحامية إذا أثّرت فيها النار تتشبه بالنار وتستضىء وتحرق ؟ فالنفس من جوهر القدس، إذا انفعلت بالنور واكتست لباس الشروق أثرت وفعلت : فتومئ فيحصل الشىء بإيمائها، وتتصور فيقع على حسب تصورها . . فالدجالون يحتالون بالمخارق والمستنير الفاضل المحب للنظام، البرىء من الشر يؤثر بتأييد النور لأنه وليد القدس [٢] ».

ففلسفته تستمد أصولها من روح صوفية مشرقة، وهو يريد من الصوفى الفيلسوف أن يصل إلى مرتبة « الحكيم المتأله» الذى يجمع فى أطواء نفسه الحكمة والتجرد والانسلاخ عن الدنيا للوصول إلى الذات الإلهية .

ورأى بعض الباحثين، ولا سيما بعض المستشرقين، أن هذه الفلسفة ذات اتصال وثيق بالفلسفة اليونانية، وبفلسفة الفرس، وأن ابن سينا قد عرض لها قبل السهروردى . . .

يقول كلمان هيوار :

«حكمة الإشراق — هى نوع من تصوف الأفلاطونية الحديثة، فهى الفلسفة المشرقية التى ظهرت فى أيام ابن سينا وصنف فيها رسالة سماها " الحكمة المشرقية" وكان لها طابع من الإبهام تحررت منه بعد ذلك »[٣] .

---

(١) ، (٢) « المشارع والمطارحات » ص ٥٠٤ من مجموعة « فى الحكمة الإلهية » تحقيق ه . كوربان .

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية » مجلد ٨ عدد ١ ص ١٤ .

ويقول ده بور :

« الإشراقيون الحكماء، أتباع المذهب القائل بحكمة الإشراق أو الحكمة المشرقية. ويطلق هذا الاسم بوجه خاص على تلاميذ السهروردى .

«وهذه الحكمة هى عبارة عن مذهب التوفيق فى الفلسفة اليونانية الذى انتقل إلى الشرق فى كتب الأفلاطونية الجديدة ، وهرمس وما شابهها. وامتزج بكتب الفرس وغيرهم ، وهى فلسفة روحانية لها فى نظرية المعرفة مذهب صوفى . وتعبر عن الله وعن "عالم العقول" بالنور . . . والمعرفة الإنسانية فى هذا المذهب عبارة عن إلهام من العالم الأعلى يصل إلينا بواسطة عقول الأفلاك ، وأكبر أصحاب هذا المذهب هم هرمس وأجا ثؤمين ، وأبندوقليس وفيثاغورس وغيرهم . ولأفلاطون بهذا المذهب أكثر من صلة أرسطوية ، وهؤلاء الفلاسفة يوصفون غالباً بأنهم أنبياء وحكماء وملهمون ، وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بهذا المذهب منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر تأثراً كبيراً . وأتباع مذهب المشّائين[1] فى الإسلام متأثرون بالفلسفة الإشراقية بعض الشىء . . . وربما كان أقلهم تأثراً بها الفيلسوف ابن رشد» [2] .

ومع اتصال فلسفة الإشراق ببعض المذاهب التى انبثقت فى فارس وعند الإغريق فقد صهر السهروردى آراء من تقدم ببوتقة من كشفه وذوقه ومواجيده وخرّجها صورة نقية تعبر عن روح وحكمة وفلسفة ، وهذا الذى جعل هذه الفلسفة توسم باسمه .

رد السهروردى كل شىء فى العالم إلى نور الله وفيضه ، وهذا النور هو « الإشراق » .

« وإذا كان العالم قد برز من إشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة — الفيض والإشراق — فإذا تجردنا عن الملذات الجسمية . تجلى علينا نور إلهى لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنسانى وهو الواهب لجميع الصور .

(١) المشاؤون هم تلاميذ أرسطو، سموهم كذلك لأنه كان يعلمهم وهو يتمشى فى أروقة المعهد .
(٢) « دائرة المعارف الإسلامية » المجلد الثانى ص ٢١٢ .

ومصدر النفوس على اختلافها ، ويسمى " الروح المقدسة " أو بلغة الفلاسفة "العقل الفعّال" ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة ، واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التى تعيننا على كشف الغيب فى حال اليقظة والنوم »[١] .

وأكد السهروردى هذا المعنى بقوله :

« . . .إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت ، إنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها . . . فإذا قويت النفس بالفضائل الروحية ، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحياناً إلى عالم القدس . وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منه المغيبات فى نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش [٢] » .

٣ — شعره

للشعر الصوفى فى أدبنا العربى ، لونه الخاص ، وجوّه الخاص ، وعبيره المسكر الذى يرتفع بالقارئ من العالَم السفلى إلى العالم العلوى . . . وهو يتميز بألفاظ وتعابير واصطلاحات خلقها الصوفيون خلقاً فلبستهم ولبسوها وعبّروا فيها عن ذوات أنفسهم وأنّات قلوبهم وحالات الوجد والشوق والغيبوبة التى تمرّ بهم . وقد يتّسم الكثير من شعرهم بسمة الغموض لمن لا يدرك اصطلاحاتهم ، ولا يعرف ما ترمى إليه ألفاظهم وتعابيرهم ، ذلك لأنهم « يؤثرون الإشارة على العبارة . ويعمدون إلى التلميح دون التصريح ، ستراً لحقائقهم ، وكتما لأسرارهم وغَيْرة على هذه الحقائق » .

وهو لون من الشعر الرمزى الذى ساد مذهبه عند الكثيرين من شعراء هذا العصر . . وربما كانت رمزية شعرنا الصوفى أدقّ فى المبنى ، وأصفى فى

---

(١) « حكمة الإشراق » ص ٣٧١ .

(٢) « هياكل النور » ص ٤٤ ، ٤٥ .

المعنى لأنه يصوّر حالات فلسفية تصدر عن الذات التى ترى حياتها أو خلودها فى الفناء . . .ويصور، إلى هذا ، أخيلة وهواجس تتلاقى فى غريب صورها عوالم الوجد والشوق والبهاء . . . فكلمة «السفر » عندهم هى عبارة عن القلب إذا أخذ فى التوجه إلى الحق .

و « المسافر » هو الذى يسافر بفكره فى المعقولات والاعتبارات .

وكلمة « الأنس» هى أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية فى القلب ، وهو جمال الجلال .

وكلمة « الوجد » ترمز إلى مايصادف القلب من الأحوال المغنية عن شهوده .

وكلمة «الوجود » هى وجدان الحق فى الوجد .

ولامجال لتعداد الكثير من الألفاظ والتعابير . . . فهى تختلف فى مدلولها عما يرمز إليه الكتاب والشعراء الذين لم تدركهم مواجيد الصوفيين .

وربما طالت تفسيراتهم للكلمة الواحدة ، فقد فسر أحد كبار المتصوفين كلمة « الوصول » بقوله :

« إذا دلك به عليه ، كنت منه وإليه .

وإذا أفناك عن الإحساس ، كنت فى حضرة الإيناس .

وإذا كاشفك بحبه ، لم تتلذذ إلا بقربه .

وإذا غيّبك عن شهودك ، تجلى لك من وجودك » .

وفى قاموس الصوفيين عشرات الكلمات ومئات الاصطلاحات ، ولكل كلمة معناها ، ولكل اصطلاح ، كما قلنا ، مغزاه ودلالته على حالة من الحالات . . . فخمرتهم ، ليست الخمرة المعصورة من كروم العنب والتى تصرع الألباب ، بل . . .هى « الخمرة الإلهية » التى تريهم نور الحق والتى سكروا بها من قبل أن يخلق الكرم كما يقول ابن الفارض :

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ، ولا شكل هناك ولا رسم

ويوضح محيي الدين بن عربى ، هذه الناحية فيذكر اضطرار الصوفيين إلى استعمال ألفاظ يدل ظاهرها على معانى أعمق مما يتصوره القارئ بقوله :

« ... فكل اسم أذكره فى هذا الجزء[1] فعنها أكنى – يريد الحقيقة الإلهية – وكل دار أندبها فدارها أعنى . . . ولم أزل فى هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقتنا المثلى ، فإن الآخرة خير لنا من الأولى ، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية ، وجعلت العبارة فى ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات ، فتتوفر الدواعى على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب ظريف روحانى لطيف » .

وبعد فلا نريد فى هذا الفصل أن نطيل الحديث عن الشعر الصوفى ، عن رموزه وإشاراته ، فمجال الحديث عنه واسع ، وليس شعر السهروردى مما يدق على الأفهام لغموض ألفاظه ، بل الأمر بالعكس ، فهو واضح كل الوضوح . . . ولكن أردنا من هذه التوطئة ، فى حديثنا عن شعره أن نقول إن الكلمات التى جاءت فى شعره – أكثرها كلمات وتعابير صوفية ترمز إلى وجده الشديد فى بحثه عن الذات العليا ، وشعره – بالرغم من إيغاله فى الدراسات الفلسفية – سوانح ولمحات كان ينفّس بها عن حالات الوجد التى تنتابه ، وما لدينا من شعره قليل ، ولا يخامرنا أى ريب بأن الكثير من شعره مفقود وليس بين أيدينا غير عدة مقطوعات وقصيدته الحائية المتداولة فى أروقة الصوفيين :

أبداً تحنّ إليكم الأرواح   ووصالكم ريحانها والراح

وهى أكثر قصائده شيوعاً ، ترسم بعض حالات وجده ، وتصور هواجس نفسه حين يغيب عن العالم الذى يعيش فى خضمه ليتصل بالذات الإلهية . . وهى نفحة عبقة من الشعر الغنائى الذى ينشده الصوفيون فى خلواتهم وحلقات أذكارهم .

نعم ، فجو القصيدة جو صوفى ، يرينا حنين العاشق وشوقه وتدلهه ، وتأرجح أيامه بين الوصل والهجر . . وهو لا يصف ذاته فحسب ، بل يرى فى « ذاته » ذوات جميع المعذبين بالحب ، المكتوين بناره ، فكل العشاق فى محنتهم سواء . . .

---

(١) « ذخائر الأعلاق ، شرح ترجمان الأشواق » بيروت ١٣١٢ هـ ص ٤ ، ٥ .

وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

إنه يريد أن يكون فى معزل عن العالم ، يريد أن يكتم حبه وأن لا تنم حالاته اللاشعورية عن وجده وحرقته وألمه . . .ولكن أنَّى له ذلك والهوى فضاح. وتنتابه الهواجس . . إنه بين أمرين خطيرين – أيبوح بحبه فيكون ثمن البوح هدر دمه أم يكتم هذا الحب وهو غير قادر على كتمانه . . . ولو حاول كتمان حبه فدموعه تنم عما يقاسيه من ألم وجوى ، وما ينتاب جسمه من نحول وسقام وضنى . . .إذن لابد له من أن يذل نفسه ويتحمل المهانة فى سبيل محبوبه . . لا جناح عليه أن يخفض جناحه فنفسه مشتاقة إلى اللقاء بأى ثمن :

وبدت شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم ، وليس عليكم للصب فى خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مشتاقة وإلى رضاكم طرفه طماح

إنه فى ثورة هائجة من الألم الممض .كيف السبيل إلى لقاء الحبيب ؟ لقد وطّن النفس على أن يتحمل ما لا يتحمله إنسان إلى أن ينجلى ليله الطويل عن إشراقة الصباح. وما الإشراقة التى تبدد ظلمة النفس إلا الوصال . هكذا صفة العشاق المدلهين ، يطرقون باب حبيبهم بدون ملل ، يطرقونه آناء الليل وأطراف النهار . . .لا يتراجعون حتى يبلغوا أمنياتهم العذبة . . . وأمنياتهم هى اللقاء . . . هى الفناء فى ذات محبوبهم . . .وطالما سفكوا نجى الدموع التى جعلوا منها بحراً ، ومن حادى الشوق ملاّحاً ينقلهم من ضفة إلى ضفة ، من بحر زاخر بالموبقات إلى بحر تطفو على سطحه المثاليات . . هنا . . أى حين تتحقق أمنية اللقاء بعد هذا الشوق والوجد والهجر الطويل يشعرون برعشات علوية تنسيهم نفوسهم .. .إنهم مع الحبيب وجهاً لوجه . .. لقد تملكهم الطرب وأخذوا يصيحون كالمشدوهين من شدة فرحهم . . .

فنى لحظات اللقاء ينسى العاشق ذاته من فرط وجده ويقظة نشوته . . .إنه يدعو النديم أن يهيىء له أدوات الشراب . . .يريد أن يبل ظمأه بعد هذا الحرمان الطويل. . .فما هى خمرته التى تشع أضواؤها فى نفسه ؟ . . .إنها الخمرة الإلهية لا الخمرة التى تعتصرها الأيدى وتدوسها الأقدام .

هذا هو جو قصيدة السهروردى الحائية (١) .

وفى إلماعى إليها وهى من أجمل الشعر الوجدى الذى تتلاقى فى كل بيت من أبياته حالة من حالات الصوفيين ، أردت أن أشير إلى شعر هذا الحكيم المتصوف الذى لم يترك باباً من أبواب الحياة العقلية ، ولا مفازة من مفازات النفس إلا طرقها وولجها باطمئنان . . .

ولأسلوبه الشعرى هذا الجرس الذى يتصل بجوهر النفس ، ومن المؤسف أن لا يصل إلينا من شعره غير هذه القصيدة وعدة مقطوعات فى أغراض تتصل بذاته ، وإن من تتوافر عنده هذه السليقة الشعرية لا بد أن يكون له عشرات القصائد والمقطوعات التى تؤلف ديواناً . . . فأين ديوانه ؟ نحن نميل إلى أنه قد فقد كما فقدت أكثر تآليفه . . .

وأنا موقن أن له غير هذا الشعر الذى نشرناه فى باب المنتخبات من هذا الكتاب ، ولعل خصومه قد أتلفوه كما أتلفوا كتبه ، ونرجو أن نكون مخطئين فى افتراضنا ، وأن تكشف لنا الأيام عن ديوانه ، فيكون لقراء فلسفته خير معين على تفهم الكثير من تأملاته فى شتى مفازات الحياة وغوامض الكون .

٤ ــ آثاره

إن حياة العقل التى عاشها السهروردى ممزوجة بحياة التصوف التى نشدها من وراء الفيض العلوى قد كوّنت منه إنساناً ترك فى التفكير الإسلامى آثاراً لفتت إليه كبار المفكرين ولا سيما فى عصرنا هذا حيث بدءوا يلتفتون إلى كتبه ورسائله ، وكلما أمعنوا ببحثها ظهر لهم لون جديد من تفكيره الحر ونزعاته الإنسانية التى تمثلت عنده فى أعلى درجاتها ، فاعتبروا « فلسفة أو حكمة الإشراق التى وضع أسسها بمثابة النزعة الإنسانية الحقيقية فى الفكر العربى (٢) » .

وقد بلغت كتبه ، كما ذكر تلميذه الشهرزورى ٤٩ مؤلفاً . وذكر المستشرق الألمانى

---

(١) اطلبها فى الفصل الرابع فى هذا الكتاب .

(٢) « الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٦٢ .

الدكتور « ا . ريتر » حين عرض لتحليل ووصف مخطوطات السهروردى الموجودة فى إستانبول أنها فى ثلاث وتسعين رسالة . . . وأكثرها كتب بالعربية ، وبعضها بالفارسية ، وقسم ثالث احتوى على ترجمات لمؤلفاته العربية إلى الفارسية قام بها هو نفسه ، وعلى رأسها كتابه « حكمة الإشراق » .

وحين يتأمل الباحث بعض مؤلفاته ، ويرى هذه القدرة على الغوص إلى أدق النزعات الفلسفية يأخذه العجب من عبقرية هذا الإنسان الذى استطاع ، فى هذه الفترة القصيرة من عمره الغض ، أن يؤلف هذه الكتب ، مع انشغال قلبه بالتصوف ، وعدم تفرغه للتأليف .

لا شك أن التراث الفكرى الذى تركه السهروردى يضعه فى مصاف العباقرة الأفذاذ . . . وأن من يريد التوسع بالنفاذ إلى جوهر فلسفته لابد له من الرجوع إلى كتبه ورسائله ، وهى تؤلف سفراً ضخماً فى الحكمة الإلهية أو الفلسفة المشرقية ضمت كل ما يمكن أن يتناوله فيلسوف متصوف قضى عمره فى البحث والدرس والتجرد للوصول إلى الذات العليا . . . فكان مصيره من المتحذلقين المشعوذين الذين يعنون بالعرض دون الجوهر ، القتل وهو فى ريعان شبابه .

ونحن نثبت هنا أسماء المصنفات التى وضعها ليرجع إليها من يود التوسع بدراسة آراء هذا الفيلسوف الإشراقى :

١ — « هياكل النور » — مطبعة السعادة ، مصر ١٣٣٥ هـ .
٢ — « حكمة الإشراق » — طبع حجر — طهران سنة ١٣١٦ هـ .
٣ — رسالة « أصوات أجنحة إسرائيل »[(١)] .
٤ — رسالة « مؤنس العشاق » [(٢)] .
٥ — النص العربى لترجمة « رسالة الطير » لابن سينا إلى الفارسية .

---

(١) رسالة فلسفية صوفية كتبها السهروردى بالفارسية بعنوان « آوزبر جبرائيل » وقد نشرها وترجمها مع مقدمة وتعليقات المستشرق « هنرى كوربان » و « باول كراوس » فى « المجلة الأسيوية » عدد يولية — سبتمبر سنة ١٩٣٥ ص ١ — ٨٢ ونشر النص المترجم من قبل « كراوس » الدكتور عبد الرحمن بدوى فى نهاية كتابه « شخصيات قلقة فى الإسلام » ص ١٣٦ — ١٥٦ مع شرح واف لها .

(٢) نشر نصها الفارسى الدكتور « أتوه أشبيس » فى دلهى سنة ١٩٣٤ وترجمها إلى الفرنسية « هنرى كوربان » .

٦ – « مجموعة فى الحكمة الإلهية» – مطبعة المعارف، إستانبول ١٩٤٥ عن « النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » وقد عنى بتصحيح هذه المجموعة « هـ . كوربان » مع مقدمة بالفرنسية عن مبدأ الإشراق والحكمة المشرقية وأسس الفلسفة الإشراقية وهى مبحث شامل .

وقد تضمن هذا المصنف الضخم وهو فى ٥١١ صفحة من القطع الكبير عدا المقدمة التى بلغت صفحاتها الـ ٨٠ صفحة – تضمن الكتب الآتية :

١ – « كتاب التلويحات اللوحية والعرشية» وهو فى ثلاثة علوم : المنطق والطبيعى والإلهى .

٢ – « كتاب المقاومات» وهو لواحق على كتاب التلويحات .

٣ – « كتاب المشارع والمطارحات» وهو كتاب فى المنطق والفلسفة والتصوف .

٤ – « التنقيحات فى أصول الفقه» .

٥ – « اللمحات » .

٦ – « الألواح العمادية» ، وهو عجالة فى المبدأ والمعاد على رأى الإلهيين .

٧ – « ابن طفيل» – رسالة الغربة الغربية – نشرها الدكتور أحمد أمين فى مجموعة رسائل حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى . دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

٨ – « رسالة صفير سيمرغ » بالفارسية نشرها أشيبس وختك فى ثلاث رسائل . ترجمة فرنسية فى مجلة هرمس ٣ – ١٩٣٩

٩ – « كتاب علم الهدى وأسرار الاهتداء » .

١٠ – « كتاب المعارج » .

١١ – « عوارف المعارف » . .

والكتب التى نشرت ، وهى جزء ضئيل مما كتبه ، تؤرخ ناحية من نواحى عبقريته الفذة .. . ونحن إذ نكتفى بهذه اللمحة من حياة هذا الفيلسوف الحكيم ، نختار للقارئ بعض نصوص من كتبه ، وهى كلمات ورموز وإشارات فى المعرفة الإلهية ترينا كيف أن الجهل قد طغى على المعرفة حين تآمر الفقهاء على

مصرعه وهو فى ريعان شبابه فخسرت الفلسفة الإسلامية إماماً من أئمتها وجهبذاً فتح فى تاريخ العقلية العربية نوافذ جديدة للبحث والفلسفة القديمة فى ضوء من الإشراق . ومبدؤها، كما علمنا ، أى مبدأ الفلسفة الإشراقية وأساسها، أن الله نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هى عماد العالم المادى والروحى ، والعقول العارفة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها .

الفصل الرابع

منتخباتٌ من آثار السَّهروردى

١ ــ السهروردى المتصوف

دعاء

من تخرصات خصومه اتهامه بانحلال العقيدة والتعطيل ولكن من يقرأ هذه النفحات التى كتبها وفاض بها قلبه المشرب بحب المعرفة الإلهية ينفى عنه ذلك . وهى تدل على إيمانه العميق وصوفيته الموغلة بالتجرد والإشراق .

الله . . .

يا قيامَ الوُجود ، وفائضَ الجُود ، ومنزلَ البركات ، ومنتهى الرَّغبات ، منورَ النّور ، ومدبّرَ الأمور ، واهبَ حياةِ العالمين . .

أَمْدِدْنا بنورِكَ ، ووفِّقْنا لمرْضاتِك ، وأَلْهِمْنا رشدَكَ ، وطهِّرْنا من رِجْس الظُّلُمات ، وخلِّصْنا من غَسَق[1] الطبيعة إلى مشاهدة أنوارِكَ ، ومعاينةِ أضوائِك . ومجاورةِ مقرَّبيك ، وموافقةِ سُكان ملكوتِك . .

واحْشُرْنا[2] مع الذين أنعمتَ عليهم من الملائكة ، والصدِّيقين ، والأنبياء والمُرْسَلين[3] .

---

(١) الغسق : ظلمة أول الليل . (٢) حشر الناس : جمعهم .

(٣) هذه المناجاة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٢ م مجاميع وعليها شرح لمحمد الإسفرايني .

مناجاة

إلـٰهى و إله جميع الموجودات ، من المعقولات والمحسوسات .
يا واهبَ النّفوس والعقول ، ومخترعَ ما هيّاتِ الأركانِ والأصول .
يا واجبَ الوُجود ، و يافائضَ الجُود .
و يا جاعلَ القلوبِ والأرْواحِ ، و يا فاعلَ الصُّورِ والأشباح .
يا نورَ الأنوارِ ، ومدبِّرَ كلِّ الدّوار .
أنتَ الأولُ الذى لا أوّلَ قَبْلَك .
وأنت الآخرُ الذى لا آخرَ بَعْدَك .
الملائكةُ عاجزون عن إدراكِ جلالِك .
والنَّاسُ قاصرونُ عن معرفةِ كمالِ ذاتِك .
أللهمَّ خلِّصْنا عن العلائقِ الدنيَّةِ الجسمانيَّة .
ونجِّنا من العوائقِ الرَّدِيَّةِ الظلمانيّة .
أرسلْ على أرواحِنا شوارقَ أنوارِك .
وأَفِضْ على نفوسِنا بوارقَ آثارِك .
العقلُ قطرةٌ من قطراتِ بحارِ ملكوتِك .
والنفسُ شعلةٌ من شُعُلاتِ نارِ جَبَرُوتِك[(١)] .
ذاتكَ فيّاضةٌ ، تفيضُ منها جواهرُ روحانيّة ، لا متمكنة ولا متحيّزة ، ولامتّصلة ولا منفصلة ، مُبَرَّأة عن الأحياز والأَيْن[(٢)] ، مُعَرَّاة عن الوصل والبين[(٣)] .

---

(١) الجبروت : القدرة والسلطة .
(٢) الأحياز : جمع حيز : المكان وقد يكون بمعنى الحوز : الأخذ . الأين : الحين ، والتعب والإعياء .
(٣) البين : الفراق .

وسبحانَ الذى لا تدركهُ الأبصار ، ولا تمثّله الأفكار .

لك الحمدُ والثناء ، ومنكَ المنعُ والعطاء ، ولك الجُود والبقاء ، فسبحانَ الذى بيده ملكوتُ كلِّ شيء وإليه ترجعُون(١) .

يا قيوم

أَيِّدْنا بالنُّور ، وثبِّتنا على النُّور ، واحشُرْنا إلى النُّور ، واجعل منتهى مطالِبنا رضاك ، وأقصَى مقاصدِنا ما يُعِدُّنا لأن نلقاك ، ظلمنا أنفسنا لستَ على الفيضِ بضنين(٢) ، أسارى الظلمات بالبابِ قيامٌ ينتظرون الرحمة ويرجونَ الخيرَ وفكَّ الأسير ، والخيرُ رضاؤك والشرُّ قضاؤك . أنتَ بالمجد الأسنى(٣) تقتضى المكارم ، وأبناء النَّواسيت(٤) ليسوا بمراتبِ الانتقام ، باركْ فى الذّكر ، وارفع السّوء ، ووفِّق المحسنين(٥) .

إيمان

ربَّنا آمَنَّا بك ، وأقرَرْنا برسالتِك ، وعلمنا أن ملكوتَك مراتِب ، وأن لك عباداً متألهين ، يتوسلون بالنّور إلى النّور على أنهم قد يهجرونَ النّور للظلمات ليتوصلوا بالظُّلمات إلى النور فيجعلون بحركات المجانين قرة عين العقلاء وعدّتهم

---

(١) عن مخطوط بدار الكتب المصرية وقد رجع إليه الأستاذ أحمد أحمد بدوى رقم ٤٤٨ فلسفة ، ومطبوع رقم ٢٠٥ ، ٢٠٦ فلسفة .

(٢) ضنين : بخيل .

(٣) الأسنى : الرفيع .

(٤) النواسيت : جمع الناسوت : الطبيعة الإنسانية وهو الناس زيد فى آخره واو وتاء كلكوت .

(٥) « هياكل النور » ص ٨ — ٩ .

الزُّلْفَى[١] ، وأرسلت لهم رياحاً لتحملهم إلى علّيين ليمجّدوا سبحانك، وليحملوا أسفارك ، وليتعلّقوا بأجنحة الكروبين[٢] ، وليصعدوا بحبلِ الشّعاع ، وليستعينوا بالوحشةِ والدّهشة ، لينالوا الأنس ، أولئك هم الصّاعدون إِلى السّماء ، والقاعدونَ على الأرض ، أيقظْ اللهمَّ النّاعساتِ من النفوسِ فى مراقدِ الغَفَلات ، ليذكروا اسَمك ، ويقدسوا مجدَك ، كمِّلْ حصّتنا من العلمِ والصبر ، فإنهما أبَوا الفضائِل ، وارْزُقْنا الرِّضا بالقضاء ، واجعل الفتوةَ حليفَتنا ، والإشراقَ سبيلنا ، إنك بالجُود الأعمّ على العالمين منّان ، والله تعالى خيرُ من أعان ، ولرسوله الصلاةُ والسّلامُ والتحيةُ والرّضوان[٣] .

التوبة

نادَى منادٍ من الملائكةِ حفّت من حولِ عرش النّور أنْ — يأيُّها التايهون فى مهمه البوار[٤] .

إن أبوابَ السموات تُفتح فى صبيحةِ كلِّ جمعة طلعت شموسٌ عن مغاربها ، فهلمُّوا إلى البابِ الأكبر وحرّكوا الذكر الحكيم وقولوا :

يا آخذَ النَّواصى[٥] .

بدأتَ فتمِّم ، خلقتَ فاهْدِ ، قضيتَ فاعفُ ، ملكتَ فاغفرْ .

يا واهبَ الحياة حقًّا :

---

(١) الزلفى : القربة .

(٢) الكروبين وقد تبدل الكاف شيناً : سادة الملائكة أو المقربون منهم وبالعبرانية : كروبيم .

(٣) « هياكل النور » ص ٤٧ — ٤٨ .

(٤) المهمه · القفر . البوار : الهلاك .

(٥) النواصى : جمع ناصية ، مقدم الرأس . ونواصى الناس أشرافهم .

ببابكَ عبدٌ من عبادك أتى من « رجس الهيولى » تايباً ، أفيرجِعُ من روحِك خايباً ؟

يا مَنْ غواشى[١] نوره أضاءت الذَّواتِ الذَّاكرات ، وطوالعُ مواهبهِ زينُ الأرواحِ السَّابحات .

إن نفساً طلبَتْكَ فلا تردّها فى انقلابِ النّاكسين ، فارحَمْ ، وانصُرْ ، واعصِمْ ، وأنتَ خيرُ العاصمين[٢] .

يا نور كل نور

إلٰهنا وإلٰه مبادينا .

يا قيّومُ ، يا حىُّ ، يا كلُّ ، يا مبدأَ الكل .

يا نورَ كلِّ نور ، يا فايضَ كلِ خيرٍ وجود .

خلّصنا إلى مشاهدِ عالمِ ربوبيتك .

نجّنا عن قيدِ الهيولى .

أذِقْنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك . .

يا ربَّنا وربَّ كلِّ عقلٍ ونفس .

أرْسِلْ على قلوبِنا رياح رحمتك ، وأخرجنا عن هذه القرية الظالم أهلها ، وأنزل على أرواحنا لوامعَ بركاتك ، وأفِضْ على نفوسنا أنوارَ خيراتِك .

يسّرِ العروجَ إلى سماء القدس، والاتصال بالرّوحانيين، ومجاورة المعتكفين فى حضرةِ الجبروتِ المطمئنين ، فى غرفات المدينة الروحانية التى هى وراء الوراء . .

---

(١) الغواشى : جمع غاشية ، الغطاء .

(٢) « التلويحات – مرصاد عرشى » ص ١٠٧ .

سبحانَك ما عبدناكَ حقَّ عبادتِك ، يا من لا يشغله سمعٌ عن سمع .
سبحانَك إنك أنت المتجلى بنورِك لعبادِك فى أطباق السموات .

٢ – السهروردى الحكيم الزاهد

فى الخربة القذرة

لا تحدِّث نفسَك ، إن كنتَ امرأً ذا جدّ بأن تتكىء على سريرِ الطبعِ راضياً برغدِ عيشةٍ فى هذه « الخربة القذرة » وتمدّ رجليك فتقول : قد أحطتُ من العلوم الحقيقية بشطرِها ، ولنفسى علىَّ حقّ ، كيف وقد فزتُ بقصَبِ السبْق على أقرانى . إن هذه خطرة ما أفلح من دام عليها قطّ !

انتبهْ يا مسكين

كلُّ هذه العلومِ صفيرُ سفيرٍ يستيقظك عن رقدةِ الغافلين ، وما خلقتَ لتنغمسَ فى مهلكك ، انتبه يامسكينُ ، وانزعجْ بقوة وارفض أعداءَ الله فيك ، واصعدْ إلى آل طاسين (١) ، لعلك ترى ربَّك بالمرصاد .

---

(١) آل طاسين أهل البيت عليهم السلام وكأنه أراد هنا كل من وصل إلى الكمال الأعلى . . وطاسين هو مبتدأ سورة النمل ، وآل طاسين هى الجواهر العقلية والنفوس الفلكية ، والحروف التى فى أوائل السور كلها إشارة إلى تلك الجواهر المفردة كأفراد هذه الحروف فإذا تيسر للسالك الصعود إلى الجواهر العقلية والاتصال بالنفوس الكاملة من أهل بيت النبوة إن قلنا إنهم المرادون بآل طاسين سهل عليه مشاهدة الواحد الحق إن رام ما هو عليه فتصدق قوله لعلك ترى ربك بالمرصاد والطريق الذى أنت سالكه ، وهذا الصعود إلى الجواهر العقلية ومشاهدة الواجب لذاته بعين اليقين لا يمكن أن يحصل بالعلم النظرى الذى هو علم اليقين بل لا يحصل إلا بالتجرد التام .

نداء الله

أتسمعُ منادى الله يناديك وتتصام ؟
قمْ من مرقدِ طبيعتِك واستشرقْ . . لعل نفحةً من الله تتلقَّاك . .
و إذا عصمت فاصبرْ ، و إذا شرعتَ فتمم ، و إذا طرحتَ فاصعدْ ، و إذا رأيت فاسجُد ، فلعل بارئَك يناجيك .

قرب الموعد

جُلْ ببدنٍ غابتْ نفسه ، واعتصمْ بكلمةٍ تقدِّسُك ، وقلْ لقومِك خذوا حذرَكم واتقوا ، فقد قربَ الموعد ، فإن لم تنتهوا فإن عذاب الله آت .

درب الأزل

أما والعادياتِ [١] لفرطِ شوقٍ دارتْ على أرجاء الكون ، ونفوسٍ قصدن بقوةٍ إلى ذُرَى العرش — إن إنساناً لم يحاربْ بنى جنٍّ أَوَوْا إلى قُلَّةِ طَودٍ [٢] منعوا حقَّ الله عزّ وجلّ لن يعبُر عن سكته إلى « درب الأزل » ولن يصل إلى « ساحل العزة » ولعل موجاً هيَّجه ، العاصفات سراعاً تختطفه ، فيغرق فى تيَّار الغَسَق ، حيث لا عينٌ باصرةٌ تطرِف [٣] ، ولا قرينٌ ذو ودٍّ يسامِر ، فهناكَ يلاقيهِ مَقْتُ السلاطة [٤] فى هيبةٍ لا معبرَ عنها للعابرين .

---

(١) أما والعاديات التى أقسم بها هى الأفلاك ، إذ هى التى تتحرك حول عالم الكون والفساد .

(٢) كأنه أراد « ببنى جن » القوى المدركة الباطنة ، والطود هو الجبل العظيم فكأنه شبه الإنسان بالجبل ورأسه الذى هو أعلاه بقلة الجبل ، والقوى المذكورة أوت إلى تلك القوة لأن محل هذه القوى الدماغ فكأنها أوت إليه .

(٣) طرفت العين : تحركت بالنظر .

(٤) سلط الرجل سلاطة : كان طويل اللسان حديده .

كوة الكبرياء

إن سكينةً من رحمةِ الله لن تلحقَ إلا نفساً فارقت أطلالَ ذوى إفْكٍ عَتوْا ، ورنت ووقفتْ على رصدٍ فرأت طيوراً صافّات ، حاضرات ، واقفات عند « كوة الكبرياء » فنادت بخفيٍّ ندائها :

يا منجى الهَلْكى .

ويا غياثَ من استغاث .

إن ذاتاً هبطت فاغْتربت ، وتذكرتْ فاضطربَتْ فسارعتْ فمنعت . . فهل إلى « وصول » من سبيل ؟

شراب الأبرار

لا تحسبنَّ أن السعادة على نوعٍ واحد بل للمقرّبين من العلماء ، البالغين فى المَلَكات الشريفة لذّاتٌ عظيمة ، ولأصحاب اليمين أيضاً لذّات دونها سيما على تقدير وجود المُثُل التخيلية ، فلهم وقفةٌ فى العالم الفلكى معها دون الوصول إلى رتبة السابقين .

« والسابقون أولئك هم المقرَّبون » ، وقد يخالط لذَّاتِ المتوسطين شوبٌ من لذّات المقرَّبين كما يشير إليه حيث قال تبارك وتعالى فى شراب الأبرار إنه « من رحيق مختوم » و « مزاجه من تسنيم ، عيناً يشربُ بها المقرّبون » وهؤلاء لهم العروجُ[1] إلى مشاهدة الواحدِ الحق ، مستغرقين فيه ، والأبرار على تقديرِ

(١) العروج : المرور .

وجودِ المثل التخيلية يتلذذون بأصباغٍ تخيلية فلكية ، وطيورٍ وحُورٍ عِين[١] ، وذهبٍ وفضةٍ وغيرها أحسن مما عندنا وأشرف[٢] .

التجرد والانقطاع

لا تضيِّعْ عمرَكَ ، فإنك لن تجدَهُ بعد فواتِه ، اصبرْ صبرَ الرِّجال ولا تعوّدْ نفسَك بأخلاق ربّات الحجال[٣] .

واعْلم أن الحكماءَ الكِبار ، منذُ كانت الحكمةُ خطابيةً في الزمان السابق مثلُ والدِ الحكماء أبُ[٤] الآباء هرمس وقبله أغاثاذيموس ، وأيضاً مثل فيثاغورس وأبا ذا قليس وعظيم الحكمة أفلاطون كانوا أعظم قدراً وأجلّ قدراً من كل مبرّز في البرهانيات نعرفه من الإسلاميين .

ولا يغرنّكَ استرسالُ هؤلاء مع فيثاغورس ، فإن هؤلاء القومَ وإن فصلوا ودققوا ما اطلعوا على كثيرٍ من خفيَّات سراير الأولين سيما الأنبياء منهم ، والاختلافات إنما وقعتْ في التفاصيل ، وأكثرُ كلامِ القوم على الرِّموز والتجوّزات فليس من الواجبِ الردّ عليهم ، وقد اتفق الكلُّ على ما ينبغي في الآخرة من علمِ الواحدِ الحق ، وما يليه من العقولِ والنفوسِ والمَعاد للسُّعداء ، فعليكَ بالرياضةِ والانقطاع لعلك تنالُ مما نالوا ، وقد حكى الإلهي أفلاطون على نفسه فقال ما معناه « إني ربما خلوتُ بنفسي وخلعتُ بدني جانباً وصرتُ كأني

---

(١) الحور : جمع أحور وهو من اشتد بياض عينه بياضاً وسوادها سواداً . والعين : جمع أعين : وهو الذي عظم سواد عينه في سعة .

(٢) « التلويحات » ص ٩٤ .

(٣) ربات الحجال : النساء .

(٤) الصحيح أن يقال : أبو الآباء .

مجرَّدٌ بلا بدَن عرىّ من الملابس الطبيعية ، برىّ عن الهيولى ، فأكون داخلاً فى ذاتى ، خارجاً عن سائر الأشياء فأرى فى نفسى من الحسنِ والبهاء والسناء والضياء والمحاسنِ العجيبة الأنيقة ما أبقى متعجباً فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف » فى كلام طويل .

وحكى المعلمُ الأول عن نفسه هذه الأنوار العظيمة وقد اتفق كلهم على أن من قدر على خلْعِ جسدهِ ورفضِ حواسّه صعد إلى العالم الأعلى وغيره من أصحاب المعارج ، ولا يكون الإنسان من الحكماء ما لم يحصل له ملكةُ خلعِ البدن والترقى، فلا يلتفت إلى هؤلاء المتشبهة بالفلاسفة المخبّطين الماديين ، فإن الأمرَ أعظمُ مما قالوا ، وطرائق هؤلاء معاً خفيّة لشرفِها وعظمتِها ومنها ظاهرة .(١)

عظات ورعشات

. . . ظُنَّ — وفقّك الله — بالعلماءِ خيراً ، وكنْ كثير الدُّعاء فى أمرِ آخرتِك ، فإنَّ الدُّعاءَ ، نسبته إلى استجلابِ المطالب ، كنسبةِ الفكرِ إلى استدعاء المطلوبِ العلمى ، فكلٌّ معدٌّ لما يناسبهُ ، والدُّعاء ، كما قال أفلاطون ، يُحرِّكُ الذِّكرَ الحكيم .

واصبرْ وتوكّلْ واشكرْ ، وارْضَ بالقضاء ، وحاسبْ نفسَك فى كل عشيَّةٍ وصبيحة .

وليكنْ يومُك خيراً من أَمسِك ولو بقليل وإلاّ فأنتَ من الخاسرين .

روّحْ سرَّكَ بتركِ ما ثقلتْ عليك تبعاتُه .

اذكر موتَك وقدومَك على اللهِ فى كل يومٍ مراراً .

---

(١) « التلويحات » ص ١١١ .

احفظ الناموسَ ليحفظَك ، ولا تؤخّر إلى غدٍ شُغل يومك ، فإن كل يومٍ آتٍ بمشاغلِه ولعلك لن تلحقَه .

اقطعْ بحسب طاقتِك ، محبّةَ ما سوى ربِّك .

وكلُّ خاطرٍ رديء يجرُّكَ إلى الجنبةِ السافلة فاقطَعْهُ أولا لئلا يقوى فيقطعَك .

وحصِّلْ لنفسِك المَلَكاتِ الفاضلة التامة .

وعليكَ بالصِّدْق ، فلا تلطِّخنَّ نفسَك بملكةِ الكَذِب فينفسدَ مناماتك وإلهاماتك وتعتادَ بالانتقاشِ بغير الحق .

ولا تظلمنّ أحداً فينتقمَ عنك قيّمُ[1] العالم .

ولا تؤذينَّ غلةً فإن عنايةَ القيّم كما نالتكَ برحمتهِ نالتها .

فكّرْ مراراً ثم قلْ . . فإن كنتَ بنطقِكَ صايراً من الصالحين فيوشك أن تصير بالصمتِ ملكاً من المقرّبين .

احفظ جانب الله في كل أمر .

وليكن لكَ مع اللهِ معاملة لا يطّلعُ عليها بنو نوعِك .

واعلمْ أن عيوناً من الملكوتِ ناظرةً إليك فعظِّمْ حُرُماتِ الله استحياءً فإن أعينَ ربِّك لا تنام .

احترز عن اليمين[2] وإن كنتَ صادقاً .

كن برًّا بوالديك إذا حقّت كلمةُ العذابِ على قومٍ ففسقوا والقيّم عليهم غضبانُ ولم يبق إلى حدّ استنزال عذاب الله إلا قليلًا ، فلا تكوننَّ بصغيرتك متممّ الكبائر فحينئذٍ يمسُّك من الخذلان ما مسَّ القرونَ الخالية .

---

(١) القيم على الأمر : متوليه .

(٢) اليمين : القسم .

كن ذا عزيمةٍ ، فإن عزائمَ الرِّجال تُحرِّك الأسباب .
اتَّقِ دعوةَ العجائزِ واليتامى فإن القيّم قد لا يسامحُ بكسر على كسير .
صلِّ لربِّك والليلُ داجٍ[١] واذكرِ الله كثيراً[٢] .

٣ – السهروردى الفيلسوف

الشوق إلى السرادق القدسى

أشدُّ مبتهجٍ بذاته هو الحقُّ الأول ، لأنهُ أشدُّ إدراكاً وأعظمُ مدرِكٍ لأجلّ مدرَك .

له البهاء الأعظمُ والجلالُ الأرفع .

وهو الخيرُ المَحْضُ والنورُ والجمال .

وكمالُ كل شيء مايجبُ أن يكون له ، فما ظنُّك بشيء وجب له الوجودُ لذاته؟ وكلُّ شيءٍ وجودُه به وكمالُه منه ، وهو نفس ما يجب فى الوجودِ لذاته .

والعشقُ : هو الابتهاجُ بتصوّرِ حضرةِ ذات ما .

والشوقُ : هو الحركةُ إلى تتميم كمالٍ ما عقلىّ أو ظنىّ أو غيرهما . وكلُّ مشتاقٍ فقد نالَ شيئاً وفاتَهُ شيء ، فالأولُ عاشقٌ لذاته فحسب ، ومعشوقٌ لذاته ولغيره وهو مقدسٌ عن الشوق ، وبعد لذته وإدراكه إدراكُ الجواهرِ العقلية المبتهجة به وبذواتهم من حيثُ هم مبتهجونَ به ، ولا ينسبُ إليهم شوقٌ لأنهم بالفعل ، وبعدهم النفوسُ الفلكية المحركة شوقاً وعشقاً ، ووراءها النفوسُ البشرية منها أولات المعارج من المقرَّبين ودونها السُّعداء من أصحاب اليمين على مراتب ،

---

(١) دجا الليل : أظلم .

(٢) « التلويحات » ص ١١٩ .

فكلُّ لذةٍ هى بإدراكٍ وحياة فما ظنُّك بذوات نفسها حياة و إدراك وعلم ؟ ودونها طايفـة انتكستْ و بقيتْ فى كرْبِ الهيولى وغصَّة وعذاب مغلولة ، مقيدة بسلاسلِ علايق الهيولى يلذعها عقاربُ الهيئات السيئة « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض » وكانت قد ناداها المنادى الحق فتغافلتْ وغوتْ فحلَّ عليها غضبُ الحق فهوتْ فهؤلاء هم الأشقياء ، وسلبت قواهم فصاروا فى ظلم الهيولى « صم بكم عمى » وقد قيل « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يومَ القيامة أعمى . قال : ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » ومن أعظم آلامهم « أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » وقد « ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » وأحاطت بهم خطيئاتهم فهم « فى الدَّرك [1] الأسفل من النار » متقاعدون .

ثم السعداء قد فازوا بنعيمِ الأبد والسرور الدايم فى حضرةِ جلال رب العالمين « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » غير مخرجينَ عن لذاتهم لهم « فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين » جرد عن عوارض الهيولى مرد عن مزاحمةِ القوى ، مكحلين بالأنوار الشارقةِ ، ينظرون إلى ربّهم بوجوهِهم المفارقة ، والنفس حينئذ كلُّها وجهٌ وعَيْن ، فى جنةٍ بنيتْ من خضرة زَبَرْجَد الحياة ، حصاها وحجرُها دررٌ و يواقيت حيَّة من أرواحٍ طاهرة ، عيونُها إدراكٌ وتعقل ، وقصورُها مراتب ، ولكلٍّ درجاتٍ مما عملوا انحذفت شواغلُ الهيولى فارتفعت الحُجُب ، فهم فى حضرةِ ربهم إخوان ، على سُرُرٍ [2] درجات الجلال متقابلين ، لهم السياحة الحقيقية فى أبحرِ النور ، والطيرانُ الحقيقى فى فضاء الملكوت لا يتجدَّد عليهم

---

(١) الدرك : للانحدار . والدرج : للصعود .

(٢) سرر : جمع سرير ، التخت .

حالٌ ولا يغير، ولا يمسّهم فيها لغوب [١] فى ظل« سدرة المنتهى [٢] » التى عندها جنةُ المأوى إذ السدرةُ غاشية لما يغشى . وقد رتعت هذه النفوسُ فى رياض الأفقِ الأعلى مبتهجة بربّ دعاها إلى ذاته فآوى ، وقد انجذب إليه ذواتٌ آخرون انجذابَ إبرة حديد إلى عوالم غير متناهيـة من مغناطيس ، باقية متعلقة بجلال اللاهوت ، فانية عن النظرِ إلى ذواتها ، غرقت فى بحر بهائه والله غالب على أمرِه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عجّل رحمك اللهُ ، بسيرٍ حثيثٍ لتلحق سعادة لا يفى بذكرها مقال ، ولا يرتقى إليها بالتصورِ وهمٌ وخيال ، فتبرز إلى ربك وترى « السموات مطويّات بيمينه » وبرزوا لله الواحد القهّار ، هنالك الولاية لله الحق .

فسلامٌ على نفسٍ قربتْ من مبدئها بقطعِ علائقِ الناسوت .
سلامٌ على ذاتٍ هبّت عليها روحُ الملكوت .
واشوقاه إلى السُّرادقِ القدسى .
وا أسفاه على العالمِ العقلى [٣] .

طريق العروج إلى الجناب الأعلى

الصوفية والمجردون من الإسلاميين سلكوا طريق أهل الحكمة ووصلوا إلى ينبوع النور ، وكان لهم ما كان « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

ومن طريق المريدين العبادةُ الدائمة ، مع قراءةِ الوحيِ الإلهى والمواظبة على الصلواتِ فى جُنح [٤] الليل والناسُ نيام ، والصوم . . . وأحسنُه ما يؤخّر فيه

---

(١) اللغوب : التعب والإعياء .
(٢) سدرة المنتهى : شجرة عن يمين العرش .
(٣) « التلويحات » ص ٩١ — ٩٤ .
(٤) الجنح : الكنف والناحية .

الإفطارُ إلى السَّحَرِ لتقع العبادةُ فى الليلِ على الجوع ، وقراءة آياتٍ فى الليل مهيّجة لرقةٍ وشوقٍ ، وتنفعهم الأفكارُ اللطيفةُ والتخيلات المناسبة للأمر القدسى ليتلطف سِرّهم . وهذا له مدخلٌ عظيم . وكذا الغلبةُ اللطيفة ، والنغمة الرخيمة [1] والوعظُ عن قائلٍ زكىّ . .

فأوّلُ ما يبتدئُ عليهم أنوارٌ خاطفةٌ لذيذة سمّوها « الطوالع واللوايح » ، وهى كلمعة بارقٍ سريعة الانطواء . ثم يُمْعنون فى الرّياضة إلى أن يكثرَ عليهم ورُودُها للملكةٍ [2] متمكّنة ، وقد يخرجُ عن اختيارهم هجومُها . ثم بعد ذلك يثبتُ الخاطف ، وعند ثباته يسمّى « السكينة » ، وعند التوغّل فى الرّياضةِ تصير « ملكة » ، ثم بعد ذلك يحصلُ لهم « قوة عروج إلى الجناب الأعلى » ، وما دامت النفس مبتهجة باللّذاتِ من حيثُ هى اللّذّاتُ فهى بعدُ غيرُ واصلة ، وإذا غابت عن شعورِها بذاتِها ، وشعورِها بلذّاتِها فذلك الذى سمّوه « الفناء » . وإذا فنيت عن الشعور فهى باقية ببقاء الحق تعالى [3] .

بقاء النفس

. . . والنفسُ باقيةٌ بعد البدن ، ومن أقرب ما يُحتجُّ به : أن النفسُ جوهرٌ غيرُ منطبعٍ ، مباين عن البدن ، وعلّتُه الفيّاضةُ باقية ، وليس له مع البدن إلاّ عَلاقةٌ شوقية ، والعلاقةُ إضافية ، ومن أضعف الأعراض — الإضافة ، فإذا بطلَ البدَنُ تنقطعُ تلك العلاقة . فلو بطلت النفسُ ببطلانِ الإضافة لكان الجوهرُ

---

(١) الرخيمة : الرقيقة اللينة . (٢) الملكة : صفة راسخة فى النفس .

(٣) « التلويحات » ص ١١٣ .

يتقوَّمُ وجودُه بأضعفِ الأعراض التى هى الإضافة، وهو محال .

ثم النفسُ إذا كان المعطى لوجودِها باقياً ، وليس لها مكان ومحلّ ليكون لها مضادٌ ومزاحمٌ يُبطلها بضربٍ من تضادّ . والجوهر المباين (١) الذى ليس بعلّةٍ فاعليةٍ مطلقةٍ للشىء تفيض وجوده — لا يلزم من بطلانه بطلان جوهر آخر (٢) فالنفسُ باقية .

ومما يُحتجُّ به أن كلَّ شىء يبطلُ فلا بدَّ وأن يكون له قوَّةُ بطلان . ولا يكون قوة بطلان الشىء البسيط فيه ، فإنه بالفعل من جهة ذاته . ولا يُتصوّر أن يكون شىء واحد هو فعلاً فى ذاته وهو القوة . فإن قوّةَ بطلانه يجب أن يكون فى قابل له فيه قوّةُ وجودِه وقوّةُ عَدَمه ، كما للصورِ والأعراض فى حواملها . والنفسُ لما كانت مجرَّدةً لا قابلَ لها ، وهى وحدانيَّةٌ ، وبالفعل من قبل ذاتها فلا يُتصور أن يكون لها قوّةُ بطلانٍ أصلاً ، لا فى ذاتِها ولا فى غيرِها ، فلا تنعدم أصلاً ، وهذا بعينه يتوجّهُ فى كلّ بسيطٍ لا قابلَ له ، كالهيولى والعقل .

وههنا شكٌ وهو ما قيل : أليست المفارقاتُ ممكنةَ الوجودِ ؟ وكل ممكن الوجود ممكن العدم . فلها قوة وجودٍ وعدم . وقد قلتم إن البسيط الذى لا قابلَ له ليس له قوة وجودٍ وعدم . وأجاب بعض المتأخرين فقال : إن العقول الفعّاله إنما إمكاناتُها بالقياس إلى وجوداتها ، بمعنى أنه متى عدمت العلّة عدمت هى بخلاف ما نحن فيه ، فإن ما نحن فيه هو ما يمكن أن ينعدم مع بقاء علّتِهِ ، وإنما يكون ذلك بفسادٍ يعرض فى جوهره .

---

(١) أى المباين للنفس .

(٢) أى بطلان النفس .

اللذات الحسية واللذات الحيوانية

اعلم أن اللذاتِ الحسّيةَ الظاهرةَ تغلبُها اللذاتُ الحيوانيةُ الباطنةُ ، حتى إن مُحِبَّ الشِّطْرَنْجِ وغيره من اللَّعِبِ قد يختارهُ على طيّباتِ المطاعم ، والإنسانُ يلتذُّ بمحافظة حشمته على وجهٍ يختارُ تركَ كثيرٍ من اللذات على تَرْكها ، ولا يخصّ نحو هذا بالإنسانِ بل وعُجْمُ الحيوانات كذلك ، حتى إن المرضعة تختارُ ما ولدتها على نفسها ، فإذا كانت هذه هكذا فكيف اللذّاتُ العقليّة ! والعوامّ غافلونَ عن أنَّ لذّاتِ الملائكةِ وتنعُّمَها بشهودِ جلال الله أعظمُ من لذّاتِ البهائم التي شاركتنا فى وقاعٍ وغِذاء . واللذة : هى إدراكُ ما وصل من كمالِ المدركَ وخيره إليه من حيثُ هو كذلك ، وإن شئت قيّدت بقولك - ولا شاغل ولا مضادّ ، والألم : إدراكُ ما وصل من آفةِ المدرك وشره إليه من حيثُ هو كذلك ، وإن شئت قيدت بما سبق ، ولكلٍّ من قواكَ المدركةِ كمالٌ وشرّ ، وكذا لذة وألم باعتبارهما ، واللذةُ متعلقةٌ بوصول لكمالٍ خيرى وإدراكه من حيثُ هو كذلك ، ويظن أن من الكمالات ما لا يلتذُّ به عند الوصول مثل الصحة وليس كذا ، فإنّا شرطنا وصولاً وإدراكا ، والمحسوساتُ عند الاستقرار قد لا تدرك ، على أن المريض عند الأوبة[1] إلى صحته عاجلاً يلتذُّ عظيماً ، واللذيذ قد يصل دون اللذة كما للمريض المبغض للطعام ، وإنما ذلك لأنه ليس بكمال فى حالته تلك أو لعدم الشعور من حيث هو كذا ولأنه يشترط فى الشعور السلامة حتى لا يكونَ كعليلِ المَعِدَة المبغض للطعام والفراغ حتى لا يكون كالممتلئ شديدًا إذا لم يلتذ بما يحضره من الطعام ، والسببُ المؤلم قد يصلُ ولا يحصل

---

(١) الأوبة : الرجوع .

الألم لعدم الشعور ، إمّا بناءً على عدم السلامة كمن سقطت قواهُ عند الموت أو على مانع كالخدر والسكر ، فإذا استوت القوةُ عَظُمَ الألم ، ومن لم يؤتَ ذوقاً قد لا يشتاق إلى الكمال ... ، ومن لم يكن له مقاساةٌ قد لا يبالغ فى احتراز كالمقصر فى الحمية لغفلته عن ألم الأمراض .

واعلم أن الذى هو عند الشهوةِ خيرٌ وكمالٌ هو مثل تكيف العضو الذى له قوة الذوق بكيفية الحلاوةِ كانت مأخوذةً عن مادة أو لم تكن ، وكذلك اللامس والشم وغيرهما ، وكمال قوة الغضب تكيف النفس بالغَلَبة أو شعور بأذى عدو أو انتقام فلكل قوةٍ على حسب كمالها لذة ، وكمالُ الجوهر المدرك أن يصير عالماً عقلياً ينتقش بجميع الوجود من لدن مسبّبِ الأسباب الحق الأول آتياً على العقول والنفوس والأجرام فما تحتها ، على النظام الذى له والمعاد إدراكاً مع ملكة حقيقية ، والعقل لا يقاسُ لذته إلى اللذات البهيمية التى سلفت الإشارة إليها لأنها أشرفُ المشاعر وإدراكاتها أقوى فإنها لا تقتصر على السطوحِ والظواهر كالحواس بل هى مستظهرةُ البواطن .

وألزم : فإنها لا تنفسد بخلاف الحواس ، وأكثر إذ مدركاتها لا تتناهى بخلاف ما للحواس .

وأشرفُ : فإن مدركاتها الحقُّ الأول وما يليه من الذواتِ القدسية فنسبةُ لذّاتها إلى لذّاتِ سائر القوى نسبةُ المدرِك والمدرَك والإدراك إلى المدرِك والمدرَك والإدراك ، والحسّيات إدراكها مشوب[1] ، والعقلُ هو المدرِك الخالص الصافى ، ولا يكذب أصلاً ، والاعتقاداتُ السيئة إنما هى لغلَبةِ وَهْمٍ ونحوه ، وأما كمالُ النفس من جهة عَلاقة المادة فإن يحصل لها الهيئةُ الاستعلائية على البدن ولا تنفعل عن

---

(١) مشوب : ممزوج غير صاف .

قواه ، و يحصل لها العدالةُ وهي عفةٌ وشجاعة وحكمة ، وهي ملكة توسط القوة الشهوانية والغضبية واستعمال القوة العملية فيما يدبّر به الحياة وما لا يدبّر ، وكمالها بالجملةِ التشبّهُ بالمبادئ بحسب الطاقة حتى تتجرَّدَ عن المادة من جميعِ الوجوهِ منتقشة بهيئة الوجود ، و إذا لم تشتق النفس إلى كمالها أو لم تتلذَّذْ فإن ذلك لعوائقَ بدنيّة ، وهذه الهيئات والملكاتُ الردية إذا تمكنت بعد المفارقة كانت النفس بعدها كـكونها قبلها ، إلا أنها زال عنها ما نعُ الألم فتتألم ، وليست منطبعة بل لها علاقةٌ شوقية إذا لم يحصل لها ملكة الاتصال بالعقل الفعّال ، وقد حيل بينها و بين ما تشتهى فتتألم بجهلها المركب ، والجهلُ المركبّ هو عدمُ العلم بالحق مع اعتقاد نقيضه « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » ، فتبقى مقهورة مخذولة ما لها من شفيعٍ ولا حميم فى نارٍ روحانيةٍ أشدَّ من نارٍ جسمانية ، والجهلُ المركب هو الذى لا يرجى فيه النجاة بل يتأبد ، وما كان بسبب عوارض فيزول ولا يدوم .

النفس المتجددة

إن فى عالمِ النفوس تجدُّداتٍ و إن لم تكن إلا بتلاحقِ نفوسٍ مفارقة لكنى فى التجدد . فكل نفسٍ طاهرة تتصلُ بنوعها تتلذذ بالمفارقات وتلذذت هى أيضاً بها فتعاكست الأنوار من كلّ على الآخر ، والأنفس الخبيثة المتلطخة تتألم بالاتصال « كلما دخلت أمة لعنت أختها » .

والبُلْهُ[١] والصلحاء والزُّهّادُ لكلٍّ سعادةٌ بحسبه ، وأما ما يقال إنه يكون فى الهواء جِرْمٌ مركّبٌ من بخار ودخانٍ موضوعاً لتخيلات بعض نفوس البُلْه

---

(١) البله : جمع أبله .

لتحصل لهم سعادة وهمية ، وكذلك لبعض الأشقياء[1] شقاوة وهمية لا أصل له ، إذ ما هو فى الهواءِ لا يبقى فيه اعتدال ، وإن قَرُبَ من النار فتحيله بسرعةٍ إلى جوهرها ، وإن كان دونه فى الهواء فإما أن يتحلّلَ بحَرٍّ أو يتكاثف فينزل ببرد ، وليس فيه جِرْم محيط يغلِبُ عليه اليَبَسُ ليحفظه عن التبدّد ويمنع غيره عن ممازجتِهِ ، ويتعيّن فيه محل التخيل متشكلاً به ولا بد من جوهرٍ يابسٍ ينحفظ فيه الصور ، ورطبٍ لتقبل ، وأما ما قاله بعض العلماء من كون جِرْمٍ سماويٍّ موضوعاً لتخيّلاتِ طوائف من السُّعداء والأشقياء لأنهم لم يتصور لهم العالم العقلى ولم ينقطع عَلاقتهم عن الأجرام وهم بعدُ على القوة التى باعتبارها احتاجت النفسُ إلى عَلاقة البدن فكلامٌ حَسَن . أما السعداء فيتخيّلون مُثُلا وصوراً عجيبة أنيقة ويتلذذون بها ، وكذا جميع ما يلتذّ به عندنا ، وتلك الصور أشرف مما فى مدركات هذه الأجرام ، إذ لا يشوُبها هذه الكدورات ، وأبقى وأبعد عن كلال وملال لقوة فهى ألذّ ، ولكن لا ينقطعُ عَلاقتها بعد وجودها إذ لا فساد فى الجرم السماوى

طريق النجاة إلى الروح الأكبر

إنما يلزم إذا كان لكلٍّ واحدٍ جِرْم آخر هو محلُ تخيله ، وإذا فهمت ما سلف فى العلم الحضورى لاتستبعد أن يكون لكثيرٍ من النفوس جِرمٌ واحدٌ يشاهدُ كلٌّ منها فيه الصورَ وليس لها تحريك ذلك الجرم لتمانعَ باختلاف إرادات ، ويجوز أن يكون هذه الأجرام متفاوتةً فى الشرف ، وتحصل العلايق معها على قدر الدَّرَجات ، ولا يبعد أن يكون إليه الإشارة بقول القائل : إن الجنة

(١) الأشقياء : التاعسون .

فى السماء الرابعة وقد قيل إنها جنة « عرضها كعرض السماء والأرض » ولهم فيها ما يشتهون وملك كبير ، ولايبعد أن يكون لهم اطلاع على أحوال هذا العالم أيضاً بمثل ما سنذكر للنفوس الفلكية ، وأما الأشقياء فلا يكونُ عَلاقتهم مع هذه الأجرامِ الشريفةِ ذوات النفوس النورانية والقوة تحوجهم إلى التخيل الجرمى ، فليس بممتنعٍ أن يكونَ تحت فلك القمر وفوق كرةِ النارِ جرْم كرّى غير منخرق هو نوع نفسه ويكون برزخاً[١] بين العالم الأثيرى والعنصرى موضوعاً لتخيلاتهم فيتخيلون به من أعمالهم السيئة مثلاً من نيرانٍ وحيّاتٍ تلسعُ وعقاربَ تلذعُ وزَقّومٍ[٢] يُشْرَب وغير ذلك ، وبهذا يندفعُ ما بقى من شبه أهل التناسخ ، ولستُ أشكّ لما اشتغلت به من الرياضيات أن الجهال والفَجَرة لو تجرّدوا عن قوة جرمية مذكرة لأحوالهم مستبقية لملكاتهم وجهالاتهم مخصّصة لتصوراتهم نجوا إلى الروح الأكبر[٣].

رده على أبى البركات المتفلسف
فى سبب انطماس الحكمة

ومِمَّنْ يشرع فى ما لا يَعْنيه من المتأخِّرين ويريدُ أن يذُبَّ[٤] عن مذاهب لا يعرفُها ولا يحيطُ بحُجَجِ أهلها إنسانٌ يُسَمَّى بأبى البركات المتفلسِف ، أثبت على « واجب الوجود » إراداتٍ متجدّدةً[٥] غيرَ متناهيةٍ ، سابقةً ولاحقةً ،

---

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين .

(٢) الزقوم : شجرة فى جهنم . وطعام أهل النار .

(٣) « التلويحات » ص ٨٦ — ٩٠

(٤) يذب : يدفع ويحامى .

(٥) إرادات متجددة : إشارة إلى قسم الإلهيات من كتاب « المعتبر » لأبى البركات وخصوصاً انفصل السابع والفصل التاسع من المقالة الأولى والفصل الخامس من المقالة الثانية .

وزعم أنه يفعلُ شيئاً ثم يريدُ بعده شيئاً آخر، فيفعلُ ويريدُ، ثم يريدُ فيفعل وله إرادةٌ ثابتةٌ أزَليةٌ[1] وإراداتٌ متجدّدة لا تتناهى. وخالف في هذا البرهان وخالف من الناس كلَّ من له في النظرِ أقلُّ رتبـــة، وخالف مذهبَ اليهودية أيضاً الذي كان يراه والإسلامية التي انتقل إليها، « فلا عقل ولا قرآن » كما يقال إلا أنه ظنَّ أن هذه المللَ ربما تقتضي هذراً، وتوهم أن هـــذه الشرايع أوجبت إرادات حادثةً غيرَ متناهية في ذات الباريْ. وهذا ما قاله[2] أحدٌ من أهل هذه الملل أصلاً، فإن الذي يجتمعون[3] عليه أهل هذه الملل أن العالم إنما عُرف حدوثه لوجوب تناهي الحوادث، فكيف يجوّزون حوادثَ غيرَ متناهية في ذات الباريْ فيلزم منه حدوث الباريْ؟ كما لزم حدوث العالم عندهم. ثم إن كان ينتسب إلى العلوم الحكمية فكان يجب عليه أن يطالعها أولاً ويضبط معانيها، فإنه إذا فُرض في الباريْ أمورٌ حادثةٌ وهي غيرُ متناهية — مع ما يلزمُ أن يكون في ذاته جهـة فاعلية وجهة قابلية وبُرهن على امتناعهما فيه — يلزم أن يكون له مغيّر ومحركٌ إلى الأشياء. ولا يُتصور أن يثبت فيه حادثٌ زماناً، فإنه إن كان مُوجِبُه ذاته فكان يجبُ أن يثبت دائماً، وإن كان مُبطِلُ وجوده أيضاً ذاتَه فما كان يصحُ حصوله. فإذا حدثَ وثبت ثم بطلَ فلحدوثه علّة ولبطلانه علةٌ أخرى حادثة، وعلةُ الحدوثِ لا تتخلى عن الحدوث، وعلةُ البُطلان لا تتخلى عن البطلان أيضاً، ويعود الكلام إلى حدوث العلتين، فلا بد من علتين مقترنتين أيضاً بالمعلولَين فيجب أن لا ينقطع عن ذاته تجدد الحوادث زماناً أصلاً. وإن فُرض في ذاته حادثٌ زماناً، فيجب أن يكون في ذاته حوادثُ أخرى غير متجددة

---

(١) الأزلي: القديم الدائم الوجود لا بدء له.

(٢) ما: حرف نفي.

(٣) هكذا جاءت، والصحيح « يجتمع عليه » وقد يكون أراد تفسير الفاعل.

مع ثباته حتى يؤدى ذلك الثابت إلى البطلان .

فيلزمُ من ضرورة وجوب التجدد الغيرِ المنصرم أن يكون فيه متجددٌ لا يصح أن ينصرم بوجه ، وقد بيّنا أن ما هذا شأنهُ هو الحركة ، وأن كل حركة ما سوى الوضعية منصرمةٌ لما تبيّن فى باب الحركاتِ فيجب أن يكون له حركةٌ وضعية ، فيكون إلهُ العالمين جسماً متحركاً على الدور ، وهذا تعطيلٌ وجهلٌ وتجاسر على مُبدع العالمين ، أو يجب أن يقال — المغيّر له على الدوام أمرٌ متجدد على الدوام فينفعلُ عن الأفلاك انفعالاً دائماً وهو من معلولات الأفلاك ومن المتأثرات عنه ، وهو محال لما سبق .

المطرودون من باب الله

و إنما تأتّى لمثل هذا المجنونِ القَذِرِ الإتيانُ بمثل هذه الهذيانات القبيحة لأنه لم يكن للحكمة فى الأرض سياسةٌ قائمة ، وفى ما قد مضى من الزمن كان لها سياسة وكان القومُ الذين يتكلمون فيها أكثرُ عنايتهم بالمشاهدات الرُّوحانية والأمور العلوية الرفيعة ، وما كان يتمكن من الكلام فيها والتصرف إلا لمن ظهر تأييدُه من آثار الأنوار القدسيّةِ وتجرّد عن محبة الرئاسات الدنيوية .

وسببُ انقلاع الحكمة عن الأرض أكثرهُ كان ظهور طائفةٍ من المتفلسفة وتطويلهم فى الأقاويل التى اشتغل الناسُ بها عن الحكمة وقدحَهم[1] فى من كان أفضلَ منهم وأعلمَ من الأقدمين . وسَعَى جماعة فى قلع العلوم عن بابل وفارس وغيرها من النواحى ، فأصلحوا أشياء حسنةً مهمة ، وأفسدوا ما هو أَحسنُ منها لأمرٍ قدره الله سبحانه وتعالى فأصبح المنتسبون إلى الحكمة غافلين عن أَسرارها ،

(١) القدح : الذم .

وانقطع النورُ عنهم . و إذا انقطع النور عن طائفةٍ بالكلية يزول هيبتهم وسلطانهم و يستذلهم النفوس . أما ترى آثار القدماء وهيبتهم فى النفوسِ واطلاعهم على عجايب الأشياء — من الطِّلَسْمات[(١)] ولطايف طرايق السلوك وآثار النفوس وغيرها — بقوة سلوكهم وضَعْف هؤلاء وعجزهم والصَّغارِ[(٢)] الذى عليهم واشتغالهم بملاذّ الدنيا ؟ ومتى يَصْفُو الفكرة لمحب الدنيا ؟ ومتى يستأهلُ للعلوم المخفية وهدايا الملكوت وهو فى ظلمات شواغل الدنيا حَيْران ؟ فهؤلاء طردَهم اللهُ من بابه ولا تظنن أنه يصل إلى المحل الأعلى إنسانٌ وليس له ملَكة شروق الأنوار العلوية . وما وراء هؤلاء إن كانوا أخيارًا فمن المتوسطين ، وإلا فمن الأشقياء . ولولا جسارةُ الرجل المذكور وشدةُ إقدامه فى حق البارئ على مثل هذه الأشياء وفى أُمّهات المسائل على خلاف البرهان ومذهب التوحيد للخاصّ والعامة ما قدحنا فيه هذا القَدْح ، فإن المُباحث بعد أن كان بشريًّا ليس بعجب منه الخطأ ، وأما رفضُ الحق الصريح بالوسواس فلا يعذر عليه .

طالب الحكمة

وأما أنتَ إن أردت أن تكون عالمًا إلهيًّا من دون أن تتعب ، وتداوم على الأمور المقربة إلى القدس فقد حدّثتَ نفسك بالممتنع أو شبيهِ الممتنع . والناسُ يجتهدون فى طلب باطلٍ غاية الاجتهاد ، وأيضًا رهابينُ[(٣)] الأمم وزُهّادُهم قد يرتكبون الأمور الشاقة وترك المألوفات لا لغرضٍ شريف بل لمطالب خسيسة .

---

(١) الطلسم : بتشديد اللام وتخفيفها كتابة يدفع بها السحر المؤذى .

(٢) الصغار : الهوان .

(٣) رهابين : جمع رهبان ، جمع راهب .

فقبيحٌ بطالب الحكمة أن لا يجتهد ولا يطلب الطُرُق الموصلة ، فإن طلبت واجتهدت لا تلبث زمانًا طويلاً إلا ويأتيك البارقةُ النورانية ، وسترتقى إلى السكينة الإلهية الثابتة فما فوقها إن كان لك مرشد ، وإن لم يتيسر لك الارتقاء إلى الملكة الطامسة فلا أقلَّ من ملكة البروق .

فإذا علمت أن فيك نوراً شارقًا لذيذاً فلك أن تعلم أن الأفلاك التى ليس لها شهوةٌ ولا غضب ونُزوع حيوانىّ وشاغل عن الحق — عز جاره — أولى باللذات الروحانية والأنوار الشارقة ، وتعلم أن حركاتها ليست لمجرّد تشبّهٍ فى إخراج الأوضاع إلى الفعل من القوة فإنه لو كان كذا ما دام دَوَرَانها على قطبَين ثابتَين فإنه يبقى مع ثبات حركتها على القطبين أوضاعٌ من قِبلِ ثبات القطبين بالقوة أبداً ، بل هى تنال أنواراً لامعةً قدسية ، فتنبعث عنها حركات ، ثم تُعِدُّ تلك الحركاتُ لإشراقٍ آخر ، فلا تزال الإشراقاتُ موجبةً للحركات والحركاتُ معدةً للإشراقات كما قيل :

إذا تغيَّبتُ بدا وإن بدا غيَّبنى

وقد يتّفق لك طربٌ يتحرّك فيه بدُنك ، فإن البدن منفعل عن أحوال النفس والنفسُ منفعلةٌ عن أحوال البدن . وتعلم أن البارقات تَرِدُ على النفس وتؤدى إلى حركةٍ فى داخل البدن بل قد تؤدى إلى انزعاجٍ فى البدن ، فلا تتعجب من انبعاث حركاتِ الأفلاك عن أنوارٍ تأتيها من الأفق الأعلى . وأنت إذا ارتقيت إلى مقامٍ أرفع فستتصل بها وما فوقها وتطّلعُ على كثير من الأنبياء وتدركُ أكثر الحقايق بالرّصد الروحانى إذا كان لك مُرشِد مُطّلع على حقايق

خفيّات الطرايق والأسرار . و إن لم تفعل فأنت فى الحكمةِ كالأكمه[1] فى سياحة الأرض !

خميرة الحكمة

ولنفوسِنا الانتقاشُ بعلومها لولا العائق البدنى ، وقد تطلِعُ النفوس على الأمر الغيبيّ فى المنام أو فى اليقظة لقوةِ نفسٍ فطرية ، أو مكتسبة بملكة الأنوار العلوية أو لضَعْفٍ طبيعى فى العائق كما للمصروعين والممرورين[2] ، أو بضرب من كسب كما يفعل المستنطقون المشغلون للصبيان بأمورٍ مترقرقة و بأمورٍ مدهشة محيّرة ، وكل من فى قواه ضعفٌ أو قلة علاقة مع رطوبةٍ فى الدماغ قابلة .

وأما الفضلاء فرياضاتُهم وعلومُهم مرموزة ، وربما توجدُ فى حكمة الإشراق إن كان الطالبُ له فطرةٌ تامة ، أو يساعده المطلع الموقّف ، وما وراء المؤيدين أرباب الآلاف يحتاج إلى مُوَقف ، على أن للحكمة خميرةً ما انقطعت عن العالم أبداً والتلقى للأمرِ الغيْبي قد يكون بقراءةٍ من مسطور ، وقد يكون بسماعِ صوتٍ من دون أن يُرى المخاطب ، وقد يكون المخاطبة بصوتٍ طيبٍ أو مهيب ، وقد يكون شبيه هَمْسٍ ، وقد يكون المخاطب يتراءى فى صورةٍ إما سماوية أو فى صورةِ سادةٍ من السادات العلوية .

مراتب الناس فى الدنيا والآخرة

واعلم أنّ السعادة أكثرُ من الشقاوة ، وأن مراتبَ الناس فى الآخرةِ كمراتبهم فى الدُّنيا . وأن للسعاداتِ والشقاواتِ مراتب . و إذا عُلِم ما سبق

---

(١) الأكمه : من اعترته ظلمة تطمس عليه . وتكمه . فى الأرض : ذهب فيها لا يدرى أين يتوجه.

(٢) الممرور : من غلبت عليه المرة وهاجت . والمرة هنا : خلط من أخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء .

فلا يتّجه لقايلٍ أن يقول : «إن كان الـكل ّبالقدر فلماذا العقاب ؟» فإن الملكاتِ الرديئةَ والهيئاتِ المبعدة هى بنفسها الموجِبةُ للألم لا لسطوةِ منتقمٍ خارجى . والمريضُ إذا قَصَّرَ فى الحِمْيَةِ[١] ونالته الأوصابُ[٢] ليس ذلك بأن الطبيب المحّذِر انتقم منه ، بل هو ما ساق إليه القَدَرُ من النَّهْمَةَ[٣] .

صور ملائكية وصور شيطانية

اعلم أنك ستُعارضُ بأعمالِكَ وأقوالِكَ وأفكارك ، وسيظهرُعليك من كلّ حركةٍ فعليةٍ أو قوليةٍ أو فكريةٍ صُورٌ جانية ، فإن كانتْ تلك الحركةُ عقليةً صارتْ تلك الصورةُ مادةً لملاكٍ تلتذُّ بمنادمته فى دنياك ، وتهتدى بنوره فى أُخراكَ ، وإن كانتْ تلك الحركةُ شهويّةً أو عصبيةً صارت تلك الصورةُ مادةً لشيطانٍ يؤذيكَ فى حالِ حياتِكِ ، ويحجبكَ عن مُلاقاة النّور بعد مماتِك .

٤ ـ السهروردى القاصّ

رؤيا

عمد السهروردى كذلك إلى التقصص ليبين فلسفته ويشرح أصولها فقص فى العلم الثالث من كتاب « التلويحات » قصة المنام الذى رأى فيه المعلم الأول وحوارهما عن الذات والنفس وكمال الوجود ومعنى الاتصال والاتحاد والعقل الفعال ، وهى خوالج نفسية تدل على اشتغال عقله الباطن كعقله الواعى فى كل ما يصله بالذات العليا . .

قال :

وكنتُ زماناً شديدَ الاشتغال ، كثيرَ الفكر والرِّياضة ، وكان يَصْعُب على

(١) الحمية : ما حمى من الشىء .
(٢) الأوصاب : الأمراض والأوجاع .
(٣) النهمة : الإفراط فى شهوة الأكل .

مسئلةُ العلم ، وما ذُكِرَ فى الكتبِ لم يتنقّح لى ، فوقعت ليلة من الليالى خلسة فى شبه نوم لى ، فإذا أنا بلذّةٍ غاشيةٍ ، و برقةٍ لامعة ، ونورٍ شَعْشَعانى[١] ، مع تمثُّلِ شبحٍ إنسانى . فرأيته ، فإذا هو غياثُ النفوس و إمامُ الحكمة « المعلم الأول » على هيئةٍ أعجبتنى ، وأُبهَةٍ[٢] أدهشتنى ، فتلقّانى بالتّرحيبِ والتّسليم حتى زالتْ دهشتى ، وتبدلت بالأنسِ وحشتى . فشكوتُ إليه من صعوبةِ هذه المسئلةِ فقال لى : ارجعْ إلى نفسِك فتنحلّ لك .

فقلتُ : وكيف ؟

فقال : إنك مُدْرِكٌ لنفسِك ، فإدراكك لذاتِك بذاتِك أو غيرها فيكون لك إذن قوةٌ أخرى ، أو ذاتٌ تدركُ ذاتَك ، والكلامُ عايدٌ فظاهر استحالته . و إذا أدركتَ ذاتَك بذاتِك أباعتبار أثرٍ لذاتِك فى ذاتك ؟

فقلت : بلى . .

قال : فإن لم يطابق الأثر ذاتك فليس صورتها كما أدركتها . .

فقلت : فالأثر صورةُ ذاتى .

قال : صورتُك لنفسٍ مطلقةٍ أو متخصّصةٍ بصفاتٍ أخرى ، فاخترت الثانى .

فقال : كلُّ صورةٍ فى النفسِ هى كلية . . وإن تركبت أيضاً من كلياتٍ كثيرة فهى لا تمنعُ الشركةَ لنفسها ، وإن فُرِض منعها تلك فلمانعٍ آخر . . وأنت مدركٌ ذاتَك ، وهى مانعةٌ للشّرِكة بذاتها . فليس هذا الإدراك بالصورة .

فقلت : أدرك مفهوم « أنا » .

فقال : مفهوم « أنا » من حيث مفهوم « أنا » لا يمنعُ وقوعَ الشركة فيه .

---

(١) الشعشعان : الطويل .

(٢) الأبهة والأبهة بتسكين الباء : العظمة .

وقد علمت أن الجزئى من حيثُ إنه جزئى لا غير كلىّ . وهذا ، وأنا ، ونحن ، وهو لها معانٍ معقولةٌ كلية من حيثُ مفهوماتُها المجرَّدة . دون إشارةٍ جزئية . .

فقلت : فكيف إذن ؟

قال : فلمّا لم يكن علمك بذاتِك بقوةٍ غير ذاتك ، فإنك تعلم أنك أنتَ المدركُ لذاتِك لا غيرُ ، ولا بأثرٍ مطابق ، ولا بأثر غيرِ مطابق ، فذاتك هى العقلُ والعاقلُ والمعقول .

فقلتُ : زِدْنى .

قال : ألستَ تدركُ بدنَك الذى تتصرّف فيه إدراكاً مستمرًّا لا تغيب عنه؟

فقلت : بلى .

قال : ألحصول صورة شخصية فى ذاتك وقد عرفتَ استحالته ؟

قلت : لا ، بل على أخذِ صفات كليته .

قال : وأنتَ تحرّكُ بدنَك الخاصّ ، وتعرفه بدناً خاصًّا جزئيًّا . وما أخذتَ من الصورةِ نفسِها لا يمنعُ وقوعَ الشركة فيها ، فليس إدراكك لها إدراكاً لبدنك الذى لا يتصوّر أن يكون مفهومه لغيره . . ثم أما قرأت فى كتبنا : أن النفسَ تتفكر باستخدام المفكرة ، وهى تفصلُ وتُركب الجزئيات ، وترتب الحدود الوسطى ؟ والمتخيلة لا سبيل لها إلى الكليات ، لأنها جرميةٌ فإن لم يكن للنفسِ اطلاعٌ على الجزئيات فكيف تُركب مقدماتها ؟ وكيف تنزعُ الكلياتِ من الجزئيات ؟ وفى أىّ شىء تستعملُ المفكرة ؟ وكيف تأخذُ من الخيال ؟ وماذا يفيدها تفصيل المتخيلة ؟ وكيف تستعدّ بالفكرِ للعلمِ بالنتيجة ، ثم المتخيلة جرميّة كيف تدركُ نفسها والصورةُ المأخوذةُ عنها فى النفسِ كلية ؟ وأنت تعلمُ متخيلتَك ووهمك الشخصيتين الموجودتين ودريت أن الوهم ينكرها .

قلت : فأَرْشِدْنى ، جزاكَ اللهُ ، عن زُمْرةِ العلم خيراً !

قال : وإذا دريتَ أنها تدركُ لا بأثرٍ مطابق ، ولا بصورةٍ فاعلمْ أن التعّقلَ هو حضورُ الشيء للذّاتِ المجرّدة عن المادة ، وإن شئتَ قلتُ عدم غيبته عنها ، وهذا أتمّ ، لأنه يعمّ إدراك الشيء لذاته ولغيره إذ الشيء لا يحضُر لنفسه ، ولكن لا يغيبُ عنها . أما النفسُ فهى مجرّدةٌ غيرُ غايبةٍ عن ذاتها ، فبقدر تجرّدها أدركتْ ذاتها ، وما غاب عنها إذا لم يكن لها استحضار عينه كالسماء والأرض ونحوهما فاستحضرت صورته . . أما الجزئياتُ ففى قوًى حاضرة لها ، وأما الكليّاتُ ففى ذاتها إذ من المدركاتِ كلية لا تنطبعُ فى أجرام[1]. والمدرَك هو نفسُ الصورة الحاضرة لا ما خرج عن التصورِ ، وإن قيل للخارجِ إنه مدركٌ فذلك بقصد ثانٍ ، وذاتها غير غايبٍ عن ذاتها ولا بدنها جملةً ما ولا قوى مدرِكة لبدنها جملة ما . وكما أن الخيالَ غير غايبٍ عنها فكذلك الصورةُ الخيالية فتدركها النفسُ لحضورها لا لتمثلها فى ذات النفس ، ولو كان تجرُّدُها أكثرَ لكان الإدراكُ لذاتها أكثرَ وأشدّ، ولو كان تَسلُّطُها على البدن أشدَّ كان حضورُ قواها وأجزائها لها أشدّ .

ثم قال لى : اعلمْ أن العلمَ كمالٌ للوجودِ من حيثُ مفهومُه . ولا يوجب تكثُّراً فيجب للواجبِ وجودُه . وأشار إلى ما ضبطناه فى الضابطِ الجامع من قبلُ . فواجبُ الوجود ذاته مجرّدة عن المادة . وهو الوجودُ البحتُ والأشياء حاضرةٌ له على إضافةٍ مبدئيةٍ تسلّطية ، لأن الكل لازمٌ ذاته ، فلا تغيب عنه ذاته ولا لازم ذاته ، وعدم غيبته عن ذاته ولوازمه مع التجرّدِ عن المادة هو إدراكُهُ كما قررناه فى النفس ، ورجع الحاصل فى العلم كله إلى عدم غيبة الشيء عن

---

(١) أجرام : جمع جرم بكسر الجيم ، الجسم من الحيوان وغيره .

المجرّد عن المادة صورةً كانت أو غيرَها ، والإضافةُ جائزةٌ فى حقه ، وكذلك السلوب ، ولا تخلّ بواحدانيّته ، وتكاثر أسماؤه لهـذه السلوب والإضافات ، ولا يعزبُ عن علمه إذن « مثقال ذرّة فى السموات ولا فى الأرض » . ولو كان لنا على غير بدننا سلطنة كما على بدننا لأدركناهُ كإدراك البدن على ما سبق من غير حاجةٍ إلى صورة . فتبينّ من هذا أنه بكل شىء محيط وأدرك إعداد الوجود ، وذلك هو نفس الحضور له ، والتسلّط من غير صورة ومثال . ثم قال لى : كفاكَ فى العلم هذا وأرشدنى إلى أمور فرّقتُ بعضها فى هذا الـكتاب(١).

فقلت له : ما معنى الاتصالِ والاتحادِ للنفوس بعضها مع بعض وبالعقل الفعّال ؟

قال : أما دمتم فى عالمكم هذا فأنتم محجوبون ، وإذا فارقتموه كاملين فلكم الاتحادُ والاتصال .

فقلت : كنّا ننكر على طوايفَ من إخوان التجريد والُحكماء فى إطلاق الاتصال فإنه لا يكون إلا فى الأجرام .

فقال : اعلم أنك فى ذهنِك تعقلُ اتصالاً مطلقاً بين جسمين معقولين مجرّدين ، وتدرك أعضاء حيوان واحد معقولة مع اتصال .

فقلت : بلى .

فقال : هل فى ذهنِك طرفٌ معيّن وامتداد مشخّص ؟

قلت : لا .

قال : إنما هو اتصالٌ عقلى . فالنفوسُ أيضاً تجد بينها فى العالم العلوى اتصالاً

---

(١) يريد كتاب « التلويحات » .

عقلياً لاجرمياً . واتحاداً عقلياً ستعرفه بعد المفارقة . ثم أخذ يثنى على أستاذه أفلاطون الإلهى ثناء تحيرت فيه .

فقلت : هل وصل من فلاسفة الإسلام إليه أحد ؟

فقال : لا ، ولا إلى جزء من ألف جزء من رتبته . ثم كنت أعدُّ جماعةً أعرفهم فما التفتَ إليهم ورجعت إلى أبى يزيد البسطامى وأبى محمدٍ سهلِ بنِ عبد الله التسترى وأمثالهما[١] فكأنه استبشر وقال : أولئك هم الفلاسفة والحكماء حقاً . ما وقفوا عند العلم الرسمىّ بل جاوزوا إلى العلم الحضورىّ ، والاتصالىّ ، الشّهودىّ ، وما اشتغلوا بعلايق الهيولى فلهم « الزلفى وحسنُ مآب » فتحركوا عما تحركنا ونطقوا بما نطقنا ، ثم فارقنى وخلفنى أبكى على فراقه ، فوالهفى على تلك الحالة[٢] .

---

(١) فلاسفة الإسلام : كالفارابى وابن سينا وغيرهما وعدم التفاته إليهم فلقلة سلوكهم وكثرة بحوثهم التى لا تتم إلا بالرياضيات والتجرد ، ولم يكن لهم ذلك . وأما أبو يزيد البسطامى وسهل التسترى والحلاج وأبو الحسن الجرجانى وذو النون المصرى وأشباههم وإن كانوا قليلى البحث والنظر فى الحكمة النظرية فلهم اليد البيضاء فى الحكمة الكشفية.

(٢) « التلويحات » ص ٧٠ .

أصوات أجنحة جبرائيل

من رسائل السهروردى التى تتميز بالطابع الصوفى والتى توغل فى الرمزية رسالته « أصوات أجنحة جبرائيل» وهى رسالة صغيرة كتبها بالفارسية بعنوان « أوز بر جبرائيل » ونقلها إلى العربية المستشرق الشاب باول كراوس ، وهى عبارة عن رؤيا سماوية يدور فيها حوار بينه وبين شيخ حكيم عن نشأة العالم والروح والأفلاك والملائكة ، ويرمز من وراء هذه الرؤيا إلى تصوير العالم السفلى والعالم العلوى. وننقل هنا إلى القارئ الكريم بعض فقرات هذه الرسالة ، وهى بمجموعها تعبير عن شوق السهروردى إلى العالم العلوى ، فى صدد دفاعه عن شيوخه وأنداده المتصوفين أصحاب الخرقة الزرقاء الذين عافت نفوسهم أوضار الدنيا فى سبيل الوصول إلى الحقائق العليا .

قال السهروردى :

حدث فى يوم من الأيام ، فى محفل ناسٍ قد أصاب بصرهم الرَّمَد ، أن رجلاً سخر بمناصب ساداتِ الطريقة وأئمتها ، ، ولقصرِ نظره ، تكلم من غير روِيةَّ فِى مشايخ السلف . ولأجل تقوية رأيه المنكر ، استهزأ بمصطلحات المتأخرين ، حتى بلغت جسارتُهُ أن أورد حكاية عن الأستاذ أبى على الفارمذى ، رحمه الله قائلاً : إنه سئل لِمَ سمَّى ذوو الخرقة الزرقاء بعض الأصوات — أصوات أجنحة جبرائيل ؟

فأجاب : اعلم أن أكثرَ الأشياء التى تشاهدُها حواسُّك تنبعثُ من صوت أجنحة جبرائيل ، وقال للسائل : إنك أنتَ أحدُ أصوات أجنحة جبرائيل ، وقد أبى ذلك الخصمُ المتعسّف أن يعترف بمثل هذا الكلام قائلاً : ماذا يمكنُ أن يكون معنى هذه الكلمة إلا هذياناً مزخرفاً ؟ ! .. ولما بلغ تجاسره إلى هذا الحدّ شمَّرتُ عن ساعد الجدّ لأزجرَه بتلك الحدَّة نفسها فى سبيل الحق ، ورفعتُ ذيل المبالاة إلى كتفى ، وطويتُ كمَّ تحملى ، واعتمدت على رُكبة الفطنة ، وسميته على طريق الشتم بليداً عاميًّا . . وقلتُ : إننى سأشرح لكم أصوات أجنحة

جبرائيل بعزم مصمّم ورأيٍ صائب ، فافهم أنت ، إن كنت رجلاً وكان فيك خلق الرجال ! . .

بدء القصّة

. . . فى يوم ما انطلقت من حجرة النساء [(١)] وتخلّصت من بعض قيود ولفائف الأطفال [(٢)] . كان ذلك فى ليلةٍ انجاب فيها الغَسَق [(٣)] عن قبة الفَلَك اللاذَوَرْدى ، وتبدَّدت الظلمةُ التى هى شقيق العدم [(٤)] على أطرافِ العالم السفلى.

و بعد أن أمسيتُ فى غاية القنوطِ من هجماتِ النّوم ، أخذت شمعاً فى يدى متضجّرًا وقصدتُ إلى رجالِ قصر أمى [(٥)] ، وطوّفتُ فى ذلك الليل حتى مطلعِ الفجر ، وعندئذٍ سنح لى هوَسٌ دخولَ دهليز أبى [(٦)] ، وقد كان لذلك الدهليز بابان : أحدهما إلى المدينة ، والآخر إلى الصحراء والبساتين [(٧)] . . قمتُ فأغلقتُ

---

(١) أى تخلص من أكدار عالم الأجسام ، وهو ينسب الأنوثة إلى هذا العالم بسبب أنه محل الإحساس والشهوات ودار اللذائذ الطبيعية .

(٢) ويقصد بالأطفال الحواس الظاهرة التى تخلص منها .

(٣) الغسق : ظلمة أول الليل .

(٤) يقصد بهذا العدم فناء عالم المحسوسات أمام بصر وفراغ من كان مشغولا ، لأن عدم الاشتغال هو من خواص الليل

(٥) معنى هذا التعبير الرمزى غير واضح ، فإذا كانت « الأم » معناها الهيولى ، أى الجسم ، فى مقابل الأب أى العقل ، فإن « رجال قصر أمى » يمكن أن يقصد بهم الحواس الباطنة ، ولذلك يجب إذاً أن نعطى لكلمة « النساء » . المذكورة من قبل معنى « الحواس الظاهرة » وأن نفهم « الأطفال » بمعنى العلائق الحية المادية عامة .

(٦) يقصد بالدهليز وجود نفسه ، وبأبيه علة وجود نفسه . وهى العقل . . ويريد بدخول الدهليز سر باطنه والتفكر فى أرجاء نفسه .

(٧) يقصد بهذين البابين : النفس والجسم .

البابَ الذى يؤدى إلى المدينة إغلاقاً محكماً ، و بعد رَتْجِه [١] قصدتُ إلى الفتق الذى يؤدى إلى الصحراء [٢] . وعند ما رفعتُ التُّرْسَ نظرتُ و إذا عشرةُ شيوخ [٣] حِسان السيماء قد اصطفّوا هنالك صفًّا صفًّا . وقد أعجبتنى هيئتُهم وجلالتُهم وهيبتُهم وعظمتُهم وسناهم ، وظهرتُ فى حَيْرةٍ عظيمةٍ من جمالهم وروعتهم وشمائلهم حتى انقطعتْ عنى مُـكْنَةُ [٤] نطق . . وفى وجلٍ عظيم ، وفى غايةٍ من الارتجاف قدّمتُ رِجْلاً وأخرتُ أخرى . وعندئذٍ قلت لنفسى : شجاعة ! لنـكن مستعدين لخدمتهم وليكن ما يكون .

وهنا سأل الشيخ من أين أقبل هؤلاء السادة . . فأجابه أننا جماعة متجردون وصلنا من حيث « أين » لا « أين » .

ولم يفهم مقاله فسأله : فى أى إقليم توجد تلك المدينة. فقال فى إقليم لا تجد السبابة إليه متجهاً .

ثم سأله عن حرفته . فقال الخياطة . . وكل واحد منهم يحفظ كلام الرب . . وإنهم سائحون .

وبعد أن يذكر مشاهداته ، وهى رموز صوفية ، ويتحدث عن العقل الفعال ، وعن النفس والعناصر الأربعة وأثر الماهية فى تدوير الأفلاك والتناسل والتوالد وغير ذلك من ظواهر الحياة وبواطنها يقول :

عدم الرؤيا لا يعنى عدم الوجود !

قلت للشيخ : لماذا نزلتَ إلى هذه الدار إذا ادعيت على نفسك عدم تحرك ؟ قال : ياسليمَ القلب ! إن الشمس تدور فى فلـكها دائماً ، إلا أن المـكفوف [٥] إن كان لا يُدركها ، ولا يحسُّ بحالها ، فإن عدمَ إحساسه لا يوجبُ عدمَ وجودها

---

(١) رتج الباب : أغلقه .

(٢) أى ترك المحسوسات واتجه إلى المعقولات .

(٣) أراد بهم الملائكة المقربين من الله ، وهم الوسائط بين « واجب الوجود » وبين « النفوس الإنسانية » .

(٤) المكنة : القدرة .

(٥) المكفوف : الضرير .

أو سكونها فى مكانها . ولو زال ذلك النقْصُ عن المكفوفِ فإن لم يَسُغْ له أن يطالب الشمس قائلاً . لماذا لم تكونى فى العالم من قبل . . لماذا لم تباشرى دورانَكِ الدائم ؛ لأن دوامَ حركتها ثابت إلى الأبد ، فليس التغيّر فى حال الشمس بل فى حال المكفوف .

وكذلك نحن : فإننا دائماً فى هذا الصف . وأمّا عدم رؤيتك إيانا فليس دليلا على عدمِ وجودنا ، أو على تغيرنا وانتقالنا عن حالنا : إن التبدل فى حالك أنت .

الاستغراق فى المشاهدة :

قلت : أتسبّحون اللهَ ، عزّ وجلّ ، تسبيحَنا ؟

قال : كلاّ ! إن الاستغراق فى المشاهدة يَشْغلنا عن التسبيح ، وإن كان هناك تسبيح ، فإنهُ ليس بواسطةِ الألسنِ والجوارح ولا بحركة واهتزاز ، وما إليه (١) .

علم الخياطة :

قلت : ألا تعلمْنِى علمَ الخياطة ؟

فتبسّم وقال : يا للأسف ! ليس لأشباهك ولنظرائك قِبلٌ بهذا ، فإن ذلك العلمَ غير مُيَسّرٍ لنوعك ، وذلك أن خياطتنا لا تتعلقُ بعملية وقصد وآلة (٢) . على أنى أعلمك من علم الخياطة قدرَ ما يمكنك من تصليح خرقتك الخشنة المرقّعة (٣) ، وقد علمنى ذلك القدر من العلم .

(١) معنى كل هذه الكلمات أن فيضها وفائدتها بفضلها هى ، وهى جواهر روحانية ، تفيض دائماً على الموجودات المستعدة لها .

(٢) إن الخياطة تشير إلى تركيب الصورة مع الهيولى – المادة .

(٣) يعنى بهذا كشف علم الطب وإصلاح البدن بالمحافظة على اعتدال المزاج .

كلام الله :

ثم قلت : — وهنا يبدأ القسم الثانى من الرؤيا — علمنى الآن كلام الله .

قال : إن المسافة عظيمة ، وما دمتَ فى هذه القرية [١] ، لا يمكنك أن تتعلم كثيراً من كلام الله تعالى ، ولـكننى أعلمك قدر ما أنت ميسّرٌ له .

وقد أحضر له لوحاً وعلمه حروف هجاء عجيبة حتى إنه استطاع أن يفهم، بواسطة ذلك الهجاء ، معنى كل سورة من سور القرآن الكريم ، وبعد أن أتم دراسته نقشت حروفه على اللوح [٢] ، وظهرت له من عجائب معانى كلام الله ما لا يدخل تحت حصر .. وقد دار حديث حوله نفث الروح فأشار الشيخ إلى أنه يشتق من روح القدس، وعند ما سئل عن نسبة ما بينهما . أجاب أن كل ما يتحرك فى أربعة أرباع العالم السفلى يشتق من « أجنحة جبرائيل » ولما باحثه فى كيفية ذلك النظام قال :

كلمات الله الكبرى :

اعلم أن للحق سبحانَه وتعالى عدَّةَ كلماتٍ كبرى تنبعث من كلماته النورانية ، أى من شعاع سِماء وجهه الكريم ، وبعضها فوق البعض [٣] ، وذلك أنه تنزلُ من الحق كلمة عليا ليس أعظم منها ، ونسبتها فى قدر نورها وتجلّيها من سائر الـكلمات مثل نسبة الشمس من سائر الـكواكب [٤] ، وهذا مرادُ ما ورد فى الخبر عن الرسول عليه السلام ، إذ قال : لو كان وجه الشمس ظاهرًا لـكانت تعبد من دون الله » . ومن شعاع تلك الـكلمة تنبعث كلمة أخرى ، وعلى

---

(١) يريد أنه ما دام فى العالم المحسوس فإنه لا يستطيع أن يقف على الكليات وعلى حقائق العلوم على الجملة .

(٢) يقصد بنقش اللوح انكشاف العلوم والمعارف التى تسمى بالعلم اللدنى .

(٣) يقصد بكلمات العقول ، أى أن جواهر العقول هى أنوار فائضة من لدن واجب الموجود، وبعضها فوق بعض درجات بحسب شرفها ورتبتها .

(٤) يقصد بالنور الأول العقل الأول، يعنى أنه لا توجد بين المخلوقات مرتبة أعلى من مرتبته .

هذا[١] واحدة بعد الواحدة حتى يكمل عدد تلك الكلمات تامة[٢] . وآخر تلك الكلمات جبرائيل عليه السلام ، وأن أرواح الآدميين تنبعث من تلك الكلمة الأخيره ، كما ورد فى حديث صحيح عن فطرة آدم : « يَبْعَثُ الله مَلكاً فينفخ فى الروح » وكذلك قوله تعالى « خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » وقال بعده : « ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه » وكذلك قال عن مريم : « فأرسلنا إليها روحنا » ومعناه جبرائيل .

روح الله :

وأما عيسى فيسمّونه أيضاً روح الله . ويسمونه مع هذا كلمةً وروحاً كما نصّ عليه : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروح منه ».

الآدميون :

أما الآدميّون فهم نوع واحد ، ومَنْ له روح فله كلمة ، بل هذان الاسمان لا يشيران عند البشر إلا إلى حقيقةٍ واحدة . ومن آخر الكلمات الكبرى تظهر كلماتٌ صغرى من غير حدّ ، على ما أشير إليه فى الكتاب الربانى بقوله : « مانفدت كلمات الله » وقال « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » — جميعها خلقت من شعاع تِلك الكلمة التى هى فى مؤخرة طائفةِ الكلمات الكبرى المذكورة ، كما ورد فى التوراة « خلقتُ أرواح المشتاقين من نورى » وهذا النور ليس غير روح القدس ، وبهذا المعنى أيضاً ما نُقل عن سُليمان النبى إذ قال له أحدهم : يا ساحر ! قال لست بساحرٍ إنما أنا كلمة من كلمات الله .

---

(١) العقل الأول علة العقل الثانى ، والثانى علة الثالث ، حتّى يصير عددها كاملا وهو عشرة ، كقوله تعالى « تلك عشرة كاملة » .

(٢) يعنى أن فيضه ينتشر دائماً على كل الكائنات المستعدة له .

محركو الأفلاك :

وللحق تعالى كلماتٌ وسطى . . أما الكلمات الكبرى فهى التى قيل عنها فى الكتاب الإلٰهى : « فالسابقات سبقاً » ، وأما قوله « فالمدبرات أمراً » فهم الملائكةُ ومحركّو الأفلاك ، وهى الكلمات الوسطى ، وكذلك فإن قوله تعالى : « وإنا لنحن الصافّون » إشارة إلى الكلمات الكبرى ، وقوله « وإنا لنحن المُسَبّحون » إشارة إلى الكلمات الوسطى ، ولأجل هذا تقدّمت عبارة : « الصافون » فى كل مكان من القرآن المجيد ، إذ قال « والصافاتِ صَفًّا ، فالزاجراتِ زجراً » وفى هذا غور بعيد لا يليق استيعابه بهذا المحل ، وقد تستعمل « الكلمة » فى القرآن أيضاً بمعنى السرّ .

جناح جبرائيل :

قلت للحكيم : أخبرنى الآن عن جناح جبرائيل ؟

قال : اعلم أن لجبرائيل جناحين : أحدهما عن يمينٍ وهو نورٌ مَحْض ، وهذا الجناح ينضاف مجرّد وجوده إلى الحق تعالى ؛ وأما الجناحُ الأيسر فتمتد عليه بقعة سوداء كأنها الكلفَ الذى يظهر فى وجه القمر ، أو كأنها تذكّرُنا بالألوان التى على قدم الطاووس ، وفى هذا إمكان وجوده الذى جانبٌ منه ينصرف إلى العدم . فإذا نظرت ما لجبرائيل من الوجود بجود الحق فإنه يوصف بوجوب الوجود ، وإذا نظرت إليه بقدر استحقاق ذاته فإنه يوصف بالعدم ، ومن هذه الجهة يلزمُ إمكان الوجود . فهذان المعنيان ممثلان فى جناحى جبرائيل : الأيمن إضافته إلى

الحق ، والأيسر استحقاقُه فى ذات نفسه ، كما قال الحق سبحانه وتعالى: « وجاعل الملائكة رُسُلاً أولِى أجنحة مَثْنَى و ثُلاث ورَباع » .

كلمة الكافرين :

وللكافرين أيضاً كلمة ، غير أن تلك الكلمة صدى ممزوجٌ بحسب ما عليه أنفسهم ، ومن الجناح الأيسر الذى يمتد عليه قدرٌ من الظلمة يهبط ظلٌ منه عالم الزور والغرور . كما قال الرسول عليه السلام : « إن الله تعالى خلَقَ الخَلْق فى الظلمة ثم رشَّ عليه من نوره » مما يشيرُ إلى شعاع الجناح الأيسر ، وكذلك ورد فى القرآن الكريم : « وجعل الظلمات والنور » فإن تلك « الظلمة » التى نسبت إلى فِعل « جعل » ، أصبحت عالم الزور ، وأما ذلك « النور » الذى ورد ذكره بعد « الظلمة » فهو شعاع الجناح الأيمن إذ كان كلُّ شعاعٍ وقع فى عالم الغرور من فوره ، و بهذا المعنى قال تعالى : « إليه يصعَدُ الكَلِمُ الطيِّب » ، إذ أن الكلمة أيضاً من شعاعه ، وكذلك قوله : « مثلًا : كلمةً طيبةً » فهى كلمة شريفة نورانية من بين الكلمات الصغرى . و إن لم تكن تلك الكلمةُ الصغرى فى غايةِ الشرف ، فكيف استطاعت أن تصعد إلى حضرة الحق تعالى ؟ ! وأما أن الكلمة والروح يدلَّان على معنى واحدٍ فإن علامة ذلك : « إليه يصعد الكلم الطيب » وكذلك « تَعرجُ الملائكة والروح إليه » فإن عبارة « إليه » ترجع فى الحالتين إلى الحق جلت قدرته ، وعلى هذا المعنى تدل أيضاً « النفس المطمئنة » اذ قال : « ارجعى إلى ربك » .

عالم الغرور :

ثم إن عالم الغرور ليس إلا صدى وظلاً لجناح جبرائيل، أعنى لجناحه الأيسر، بينما تصدر الأنفس المضيئة من الجناح الأيمن[١] ، وأمّا الحقائق التى تلقى فى الخواطر والتى شأنها كما قال : « كَتَبَ فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » ، وكذلك النداء القدسى الذى شأنه كما قال : « وناديناه أن يا إبراهيم » وغيرها كل ذلك من جناحه الأيمن[٢] ، وأما القهر والصيحة والحوادث الخاصة بعالم الغرور فهى من جناحه الأيسر[٣] .

صورة جناح جبرائيل :

قلت للشيخ : فما هى ، فى آخر أمرها — صورةُ جناح جبرائيل ؟

فأجاب : يا عاقل ! كل هذه الأشياء ليست إلاَّ رموزاً ، إن عَلِمتَها على ظاهر معناها كانت تخيُّلاتٍ لا حاصل لها .

قلت : أليست كل هذه الكلمات يجاورها اليوم والليلة ؟

قال : يا عاقل ! ألا تعرِفُ أن غاية صعود تلك الكلمات إلى حضرةِ الحق تعالى كما قال : « إليه يصعد الكلم الطيب » ؟ وفى حضرة الحق تعالى ليس ليل ولا نهار : « ليس عند ربكم صباح ولا مساء » ، أى فى جانب الربوبية لا يوجد زمان .

---

(١) يعنى أن عالم الكون والفساد صادر عن صفة إمكانه ، ولهذا فهو قابل للعدم ، أما الأرواح الإنسانية فصادرة عن صفة وجوبه ، ولهذا فإنها غير قابلة للعدم .

(٢) إن جبرائيل ، كما يقول الشارح ، هو الواسطة بين فيض واجب الوجود وبين النفوس الإنسانية ، وينتج من هذا أن إلقاء الحقائق الروحية والنداء القدسى كلاهما من تدبيره .

(٣) ويقول إن جبرائيل يؤثر فى عالم الكون والفساد وهو محل القهر والصيحة « صراخ البؤس » والحوادث ، وعلى هذا فكل شىء صادر عن تأثيره .

قلت : وأين القرية التى قال الحق تعالى عنها : « أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » ؟

قال : ذلك هو « عالم الغرور » الذى هو أليق محلٍّ للكلمة الصغرى . ثم إن الكلمة الصغرى أيضاً قرية لأن الله تعالى قال : « وتلك القُرى نقصّ عليك من أنبائها وفيها قائمٌ وحصيد » أليس هذا هيكل الكلمة الذى أصبح خراباً ؟ على أن ما ليس له مكان ، وما خرج عن كليهما فهى كلمات الحق تعالى ، كبيرة كانت أم صغيرة .

ثم عند ما ارتفع على قصر أبى فجرُ النهار ، أغلق الباب الخارجى وفتح باب المدينة ، وذهب التجار إلى أشغالهم ، وتغيَّبت عنى جماعة هؤلاء الشيوخ ، و بقيت فى حسرةٍ متشوقاً إلى صحبتهم ، عاضًّا أناملى وصارخاً الويل ، ومُظهِراً لعظمة حيرتى ولكن لا فائدة بعد(١) .

وهنا تنتهى هذه القصة

---

(١) نشرت ترجمة هذه الرسالة عن الفارسية فى المجلة الأسيوية « Journal Asiatique » عدد يولية — سبتمبر ٩٣٥ ص ١ — ٨٢ كما نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى نهاية كتابه « شخصيات قلقة فى الإسلام » مع الشروح المنقولة عن الفارسية لشارح مجهول .

حى بن يقظان

كما كتب ابن الطفيل قصة حى بن يقظان، وجاراه فيها ابن سينا فقد ابتدع السهروردى، بخياله الخصب، صورة جديدة لهذه القصة بما يوائم فلسفة الإشراقية. وقد استهلها بالمقدمة الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ، وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى، محمدٍ وعِتْرَتهِ[١] الطاهرين. أما بعدُ فإنى لما رأيتُ قصة حىّ بن يقظان، فصادفتُها — مع ما فيها من عجائبِ الكلماتِ الروحانيّة والإشاراتِ العميقة — معترّيةً[٢] من تلويحاتٍ تشيرُ إلى الطَّوْرِ الأعظمِ الذى هو الطّامةُ الكبرى، المخزون فى الكتبِ الإلهية، المستودَع فى الرُّموز، المخفىّ فى قصة حىّ بن يقظان، فهو الذى يترتبُ عليه مقاماتُ الصوفية وأصحاب المكاشفات، وما أشير فى رسالة حىّ بن يقظان إلا فى آخر الكتابة حيث قال « ولقد هاجر إليه أفراد من الناس . » إلى آخر الكتاب، فأردت أن أذكر طورًا فى قصةٍ سمّيتُها أنا قصة الغريبة الغربية لبعض إخواننا الكرام وعليه أتوكل و به أستعين.

ثم مضى يروى القصة فقال:

سافرتُ مع أخى عاصمٍ من ديار ما وراءَ النهر لنصيدَ طائفةً من طيورِ ساحل لجّة الخضراء، فوقعنا بغتةً فى قريةِ الظالم أهلها، أعنى مدينة قيروان، فلما أحسّ قومُها أننا قدمنا عليهم، ونحنُ من أولادِ الشيخِ المشهور بهادى بن أبى الخير اليمانى، أحاطوا بنا وأخذونا وقيّدونا بسلاسلَ وأغلالٍ من حديد، وحبسونا فى

---

(١) العترة: ولد الرجل وذريته وعشيرته ممن مضى.

(٢) معترّية: عارية.

مقعر بئرٍ لانهاية لمسلكها . وكان فوقَ البئرِ المطلّة التى عمرت بحضورنا قصرٌ مشيَّدٌ عليها أبراجٌ عالية ، فقيل لنا لا جُناح[١] عليكم إن صعدتم القصر مجرّدين إذا أمسيتم ، أما عند الصباح فلا بدَّ من الهوى فى غَيابة[٢] الجبّ . وكان فى قَعْرِ البئر ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض ، إذا أخرج « الإنسان » يدَهُ لم يكد يراها . إلاّ أَنّا أوبةَ المساء نرتقى القصرَ مُشْرفين على الفضاء ، ناظرين من كوّةٍ فربما يأتينا حماماتٌ من أيوك اليمن ، مخبرات بحال الحمى . وأحياناً تزورنا برقٌ يمانية ترمضُ من الجانب الأيمن الشرقى وتخبرُنا بطوارقِ نجد ، تزيدنا بارتياحٍ وجداً على وجد . فنحنُّ إلى الوطن ونشتاق . فبينما نحنُ فى الصعودِ ليلا والهبوطِ نهاراً إذ رأينا الهدهد مسلّماً فى ليلة قمراء ، فى منقارِه كتاب ، صدر من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة وقال لى : أنا أحطتُ بوجه خلاصِكما وجئتكما من سبأ بنبأ يقين ، وهو ذا مشروح فى رقعةِ أبيكما . فلما قرأنا الرقعةَ فإذا فيها مكتوب أنه من الهادى أبيكم ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم كم شوقناكم فلم تشتاقوا ، ودعوناكم فلم ترحلوا ، وأشرناكم فلم تفهموا . وأشار فى الرقعةِ إلىّ بأنك يا فلان ، إن أدرت أن تتخلّصَ مع أخيك فلا تَنِيا[٣] فى عزم السفر واعتصم بحبلنا وهو جوهرُ الفلكِ القدسى المستوى على نواحى الكسوف ، فإذا أتيت وادى النيل ، فانفضْ ذيلَكَ وقل الحمدُ لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وأَهْلِكْ أهْلَكَ[٤] واقتل امرأتَكَ إنها كانت من الغابرين ، وامْضِ حيثُ تؤمر فإن دابرَ هؤلاء مقطوع مصبحين فاركب فى السفينةِ التى بسم الله مجْرِيها ومُرْسِيها فى

---

(١) لا جناح : لا لوم .
(٢) غيابة الجب : قعره .
(٣) لا تنيا : لا تتوانيا .
(٤) يريد بالأهل : الشهوات ، وبالمرأة : النفس الشهوانية .

الرقعة جميع ما هو كاين فى الطريق . فتقدَّم الهدهد وصارت الشمسُ فوق رؤوسِنا إذا وصلنا طرفَ الظل فركبنا فى السفينةِ وهى تجرى بنا فى موجٍ كالجبال ، ونحن نرومُ الصعود على طورسينا حتى نرمُقَ صومعةَ أبينا . وحال بينى و بينَ ولدى الموج فكان من المغرقين . وعرفتُ أن قومى موعدُهم الصبح ، أليس الصبحُ بقريب ؟ وعلمت أن القريةَ التى كانت تعمل الخبائث ، يجعل عاليَها سافلَها ، و يُمطرُ عليها حجارةً من سِجِّيلٍ[1] منضود . فلما وصلنا إلى موضعٍ تتلاطمُ فيه الأمواج ، وتتدرّجُ فيه المياه ، أخذتُ ظِئْرِى[2] التى أرضعتنى فألقيتُها فى اليَمِّ[3] فكنا نسيرُ فى جاريةٍ[4] ذاتِ ألواحٍ ودُسُر[5] وغرقنا السفينةَ مخافةَ ملكٍ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً . والفُلكُ[6] المشحون قد مرّ بنا على مدينة يأجوجَ ومأجوج[7] على الجانبِ الأيسر من الجودى كان معى من الجنّ مَنْ يعملُ بين يدى وفى عينِ القِطْر[8] فقلت للجنّ : انفخوا حتى صار مثلَ النارِ فجعلتهُ سدًّا[9] حتى انفصلتُ منهم وتحقّقَ وعدُ ربِّى حقًّا . ورأيتُ فى الطريقِ جماجمَ

---

(١) الحجر المطبوخ . وفى الكلام إشارة إلى سورة الفيل : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . »

(٢) الظئر : العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

(٣) اليم : البحر .

(٤) الجارية : السفينة .

(٥) الدسر : جمع دسار وهو شىء كالليف تشد به ألواح السفينة .

(٦) الفلك : السفينة تذكر وتؤنث .

(٧) يأجوج ومأجوج وقد تخفف الهمزة : اسم قبيلتين قديمتين .

(٨) القطر : النحاس الذائب .

(٩) تضمين لآيات من سورة الكهف منها : « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . »

عاد وثمود وطُفْتُ فى تلكَ الدِّيارِ وهى خاوِيةٌ على عروشِها ، وأخذتُ الثَّقَلَيْنِ (١) مع الأفلاكِ وجملتُها مع الجن فى قارورةٍ صنعتُها أنا مستديرة عليها خطوطٌ كأنها دوايرُ تقطّعت ، إلا أنها من كَبِدِ السماء فلما انقطع الماء عن الرَّحا(٢) انهدم البِناء وخلص الهواء إلى الهواء وألقيت الأفلاكُ على السمواتِ حتى طحن الشمس والقمر والكواكب فتخلّصت من أربعة عشرَ تابوتاً فألقيت سبيلَ الله فتيقظتُ أن هذا صراطى على مستقيماً وأختى وقد أخذتها بياتاً فباتت فى قِطَعٍ من الليل مظلم وبها جنّ وكابوس يتطرّقُ إلى صرعٍ شديد . ورأيت سراجاً فيها دهنٌ ينتسجُ نوره وينتشر فى أقطار البيت وشعلُ مساكنها من إشراقها نور الشمس عليهم فجعله فى فم تنين ساكن فى برجِ دولاب تحته بحرُ قلزم وفوقه كواكبُ ما عرَفَ مطلع أشعّتها إلا باريها والرّاسخونَ فى العلم . ورأيتُ الأسدَ والثورَ قد غابا ، والقوس والسرطانَ قد طُويا فى طى تدور الفلك وبقى الميزان مسبوقاً فإذا طلع النجمُ اليمانى من وراء غيومٍ رقيقة متألّقة مما نسجته عناكبُ زوايا العالمِ الصغرى عالمِ الكون والفساد ، وكان معنا غنم فتركناها فى الصحراء فأهلكتهم فى الزلزال ووقعت فيها نار صاعقة . فلما انقطعت المسافة وانقرض الطريقُ وفار التنّور من الشكل المخروط فرأيت الأجرامَ العلوية واتصلتُ بها سمعت نغماتها ودستاناتها وتعلمتُ منها أشياء وأصواتها تقرعُ مسمعى كأنها صوتُ سلسلةٍ تجرّ على صخرةٍ صمّاء وتكاد تتقطّع أدبارى وتنصرمُ مفاصلى من لذة ما انسل ولا يزالُ الأمر يتطور علىّ حتى تقشّع الغمامُ وتمزّقت المشيمة(٣) وخرجت من المغامرات والحوت قد انقض من الخيرات متوجهاً إلى عين الحياة فرأيتُ الصّخرةَ العظيمةَ

---

(١) الثقلان : الإنس والجن .

(٢) الرحا : الطاحون .

(٣) المشيمة : غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة .

على قُلّة(١) الطُّورِ العظيم ، فسألتُ عن الحيتانِ المجتمعةِ وعن الحيواناتِ المتنعّمةِ المتلذّذةِ بظلّ الشاهقِ العظيم أن هذا الطورَ ما هو ؟ وما هذه الصخرةُ العظيمة ؟ فاتخذ واحدٌ من الحيتانِ سبيله في البحر سَرَباً(٢) وقال : ذلك ما كنا نبغي وهذا الجبلُ طورسينا والصخرةُ صومعةُ أبيك فقلت : وما هؤلاء الحيتان ؟ فقالوا : أشباهُك أنتم من أبٍ واحد وقد وقع لهم شبهُ واقعتِك فهم إخوانُك . فلما سمعتُ وحقّقتُ عانقتُهم وفرحتُ بهم وفرحوا بي فصعِدْنا إلى الجبل ورأيت أبانا شيخاً كبيراً يكادُ السموات والأرَضون تنشقّ من تجلّي نوره ، فبقيتُ تايهاً متحيراً منه ومشيتُ إليه فسلّم عليّ فسجدتُ له ولُذتُ أنمحقُ في نوره السّاطع ، فبكيت زماناً وشكوت إليه من حبس قيروان فقال لي : نعم تخلصت إلا أنك لا بدّ راجعٌ إلى السجن الغربي ، وأن القيد ما حلفته تماماً . فلما سمعتُ طار عقلي وتأوهتُ صارخاً صراخَ المُشْرفِ على الهلاكِ ، فتضرعتُ إليه فقال : أمّا العودُ لك فضروريٌّ الآن ولكنني أبشّرُك بشيئين : أحدهما أنك إذا رجعتَ إلى الحبس يمكنك المجيء إلينا والصّعودُ إلى جنبتنا هيّنٌ متى شئت ؛ والثاني أنك متخلصٌ من الآخر إلى جنابِنا تاركاً للبلاد الغربية بأسرها مطلقاً ففرحت بما قال . وقال : اعلم أن هذا جبلُ طورسينا وفوق هذا جبلُ طورسينا مسكنُ والدي وجدّك ، وما أنا بالإضافة إليه إلا مثلك بالإضافة إليّ ، ولنا أجدادٌ آخرون حتى ينتهي النسبُ العظيم إلى هذا الحدّ الأعظم الذي لا جدّ له ولا أم ، وكلنا عبيدُه وبه نستعينُ ومنه نقتبسُ وله البهاء الأعظمُ والجلالُ الأرفعُ وهو فوقَ الفوق ونورُ النور وهو المتجلي لكل شيء بكل شيء ، وكلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه . فأنا في هذه القصة إذ تغيّرَ عليّ الحال وسقطتُ من الهوى إلى الهاويةِ بين قومٍ ليسوا

---

(١) القلة : القمة .

(٢) سرباً : انسيالا .

بمؤمنين محبوساً فى ديار المغرب و بقى معى من اللذة ما لا أطيقُ أن أشرحَهُ ، فانتحبتُ وابتهلتُ وتحسّرتُ على المفارقة . وتلك الراحةُ كانت أحلاماً زايلةً على سرعة ، نجانا الله تعالى من قيد الهيولى والطبيعة ، والحمدُ لله ربّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمد وعِترتهِ الطاهرين ، وهذه القصة تسمى الغُرْبةُ الغربية .

٥ — السهروردى الشاعر

حنين

يقول ياقوت الحموى فى معجم الأدباء : « وله شعر كثير ، أشهره وأجوده قصيدته الحائية : « أبداً تحن إليكم الأرواح » ، ومن المؤسف أن لا نعثر فى أكثر كتب الأدب والحكمة والتصوف إلا على هذه القصيدة و بعض مقطوعات تصور بعض نزعاته الصوفية نثبتها فيما يلى :

أبداً تَحِنُّ إليكُمُ الأرواحُ ... وَوِصالُكُمْ رَيْحَانُها والرَّاحُ (١)
وقلوبُ أَهلِ وِدادِكُمْ تَشتاقُكُمْ ... وإلى لذيذ لقائِكُم ترْتاحُ
وارحمَتَا للعاشقِينَ تكلَّفوا ... سَتْرَ المحبةِ ، والهَوَى فضَّاحُ
بالسِّرِّ إنْ باحوا تُبَاحُ دِماؤُهُم ... وكذا دماءُ العاشقين تُباحُ (٢)
وإذا هُمُ كَتَمُوا تَحَدَّثَ عَنْهُمُ ... عِنْدَ الوُشاةِ المدمَعُ السفّاحُ (٣)
وَبَدَتْ شواهِدُ للسَّقامِ عَليهمُ ... فيها لِمُشْكِلِ أمرِهِمْ إيضاحُ
خَفْضُ الجنَاحِ لكم، وليس عليكُمُ ... لِلصَّبِّ فى خَفضِ الجناحِ جُنَاحُ (٤)

---

(١) الوصال : ضد القطيعة والهجران . الراح : الخمر .

(٢) جاءت كلمة « البائحين » فى بعض النسخ بدلا من العاشقين . .

(٣) جاءت كلمة « السحاح » فى بعض النسخ بدلا من « السفاح » .

(٤) خفض الجناح : لين الجانب . ويمكن ضبط هاتين الكلمتين على أنهما فعل ومفعول به . والجناح بضم الجيم : الإثم .

فإلى لِقَاكُمْ نفسُهُ مُشتاقةٌ ... وإلى رضاكُمْ طَرْفُهُ طَمَّاحُ(١)

عُودُوا بنُورِ الوَصْلِ فى غَسَقِ الجفا ... فالهجرُ ليلٌ والوِصالُ صَبَاحُ

صافاهُمُ فصفَوْا له ، فقلوبُهمْ ... فى نُورِها المِشكاةُ والمِصباحُ

فتَمَتَّعوا ، والوقتُ طابَ بِقُرْبِهم ... راقَ الشَّرابُ وَرَقَّتِ الأقداحُ(٢)

يا صَاحِ : ليسَ على المُحِبِّ مَلامَةٌ ... إن لاحَ فى أُفُقِ الوِصالِ صَبَاحُ

لا ذَنْبَ لِلعشَّاقِ إن غَلَبَ الهوى ... كِتمانَهُمْ فنما الغرامُ فَبَاحُوا

سَمَحوا بأنفسِهمْ وما بَخِلوا بها ... لما دَرَوْا أنّ السَّماحَ رَبَاحُ(٣)

وَدَعاهُمُ داعى الحقائقِ دَعْوةً ... فغدوْا بها مُستأنسِين وَرَاحُوا

رَكِبوا على سَنَنِ الوفا وَدُموعُهُم ... بحرٌ ، وحادى شوقِهِمْ ملاّحُ(٤)

واللهِ ما طلبوا الوقوفَ ببابهِ ... حتى دُعُوا وأتاهُمُ المِفتاحُ

لا يَطْرَبونَ لغيرِ ذِكرِ حبيبِهم ... أبداً فكلُّ زمانِهِمْ أفراحُ

حَضَرُوا ، فغابوا عن شهودِ ذَوَاتِهم ... وتهتّكوا لما رَأَوْهُ وصاحُوا

أفناهُمُ عنهم وقد كُشِفَتْ لهمْ ... حُجُبُ البَقَا فتلاشتِ الأرواحُ

فتشبَّهُوا إن لم تكونُوا مِثلَهُمْ ... إنَّ التشبُّهَ بالكِرام فلاحُ

---

(١) جاءت كلمة « مرتاحة » فى بعض النسخ بدلا من « مشتاقة » .

(٢) جاءت كلمة « دارت » فى بعض النسخ بدلا من « ورقت » .

(٣) الرباح : هو الربح .

(٤) الحادى : السائق .

قم يا نديمُ إلى المدامِ وهاتِها ... فبِحانها قد دارتِ الأقداحُ (١)
من كَرْمِ إكرامٍ بِدَنٍّ دِيانةٍ ... لا خَمْرَةٍ قد داسَها الفَلاَّحُ (٢)

النفس

كتب السهروردى كثيراً عن النفس ، وقد جارى ابن سينا فى عينته المشهورة .
هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
ومن المؤسف أن لا نظفر من قصيدة السهروردى إلا على هذه الأبيات :

خَلَعتْ هيا كلَها بِجَرْعاءِ الحمى ... وصبتْ لمغناها القديمِ تشوُّقَا (٣)
وتلفّتتْ نحو الدّيارِ فشاقَها ... ربعٌ عفتْ أطلالُهُ فتمزَّقا (٤)
وقفتْ تسائلُهُ فردّ جوابها ... رجْعُ الصَّدَى أن لا سبيلَ إلى اللقا
فكأنما برقٌ تألّقَ بالحمى ... ثم انطوى فكأنه ما أبرقا

ظلم العناصر

ومن شعره الذى يصور فيه وحدته وعزمه على الرحيل قوله :

أقولُ لجارَتى والدّمعُ جارى ... ولى عزمُ الرَّحيل عن الديار
ذَرينى أن أسيرَ ولا تنُوحى ... فإن الشُّهْبَ أشرفُها السَّوارى (٥)
وإنى فى الظلام رأيْت ضَوْءًا ... كأن الليلَ بُدِّل بالنَّهار

---

(١) المدام : الخمر . الحان والحانة : موضع بيع الخمر .
(٢) الدن : الوعاء .
(٣) الجرعاء : رملة مستوية لا تنبت شيئاً . صبا : حن . المغنى : المنزل .
(٤) عفت : درست وامحت .
(٥) ذرينى : دعينى . السوارى : جمع سارية .

إلى كَمْ أجعلُ الحياتِ صَحبى إلى كم أجعَلُ التنِّين جارى[١]
وأرضى بالإقامةِ فى فلاةٍ وفى ظُلْم العناصرِ أين دارى ؟
ويبدو لى من الزَّوراءِ برقٌ يُذكِّرنى بها قُرْبُ المزارِ
إذا أبصرتُ ذاك النورَ أفنى فما أدرى يمينى من يَسارى

متفرقات

ومما يروى عنه قوله :

أشمُّ منكَ نسيماً لستُ أعرِفُهُ أظنُّ لَمْياءَ جرّت فيكَ أذيالا

وقوله :

إن تأمَّلْتُكُمْ فكلِّى عيونٌ أَو تذكَّرْتُكُمْ فكلِّى قُلوبُ

وصال

تروح حياة العشاق بين الهجر والوصال وفى هذه الأبيات يصور السهر وردى حلاوة الظفر بالوصال :

تصرَّمتْ وَحْشَةُ الليالى وأقبلتْ دولةُ الوصال[٢]
وَصار بالوصل لى حسوداً مَنْ كان فى هَجْرِكُمْ رثى لى
وحقِّكُمْ بعد أن حصلتُمْ بكلِّ ما فاتَ لا أبالى[٣]
أحييتمونى وكنتُ مَيْتاً وبعتمُونى بغير غالى

---

(١) التنين : الحية العظيمة .

(٢) تصرمت : تقطعت وانقضت .

(٣) بعد أن حصلتم : أى بعد أن واصلتم .

تقاصرتْ عنكمُ قلوبٌ فيا له مورداً حلا لى[١]
علىَّ ما للورَى حرامٌ وحبُّكمْ فى الحشا حلالى[٢]
تشرَّبَتْ أَعظُمى هواكمْ فما لغيرِ الهوى ومالى
فما على عادمٍ أُجاجاً وعندَهُ أعْيُنُ الزُّلال[٣]

تشكك

ومن شعره الذى ذهب فيه مذهب المتشككين قوله :

فُزْ بالنَّعيمِ فإن عمرك ينفدُ وتغنَّم[٤] الدنيا فليس مخلَّدُ[٥]
وإذا ظفرتَ بلذَّةٍ فانهضْ لها لا يمنعنَّكَ عن هواك مفنَّدُ[٦]
وصِلِ الصَّبُوحَ مع الغَبُوقِ فإنما دنياكَ يومٌ واحـدٌ يتردَّدُ[٧]
وعدوكَ تشربُ فى الجنانِ مدامةً ولتندمنَّ إذا أتاكَ الموعدُ
كم أمَّةٍ هلـكتْ ودارٍ عُطِّلَتْ ومساجدٍ خَرِبتْ وعُمِّرِ معهدُ
ولـكم نبىٍّ قد أتى بشريعةٍ قِدْماً وكم صَلُّوا لها وتعبَّدوا[٨]

---

(١) حلا : كان حلواً . وفى رواية أخرى : خلا بالخاء المعجمة .

(٢) حلالى : حلال لى ضد الحرام .

(٣) الأجاج : الماء الملح المر .

(٤) تغنمه : انتهز غنمة — عن « أقرب الموارد » .

(٥) تدخل « ليس » على الجملة الفعلية أو على المبتدإ والخبر مرفوعين — عن « مغنى اللبيب » طبع دار الكتب العربية الكبرى ج ١ ص ٢٢٨ .

(٦) المفند : اللائم أو المكذب .

(٧) الصبوح : كل ما شرب صباحاً . والغبوق : ما يشرب فى العشى .

(٨) « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٧٠ .

العصفور والقفص

قالها وهو فى اللحظات الأخيرة من أيام حياته :

قلْ لأصحابٍ رأونى مَيِّتاً   فبكَوْنى إذ رأَوْنى حزَنا
لا تظنُّونى بأَنِّى ميِّتٌ   ليس ذا المِّيتُ واللهِ أنا
أنا عصفورٌ وهـذا قَفَصى   طِرْتُ منه فتخلَّى رَهَنا
وأنا اليومَ أُناجى ملأً   وأرى اللهَ عِياناً بهنـا
فاخلعوا الأنفسَ عن أجسادِها   تَرَونَّ الحقّ حقًّا بيِّنا
لا ترُعكمْ سكرَةُ الموتِ فما   هى إلا كانتقالٍ من هنا
عنصرُ الأرواحِ فينا واحدٌ   وكذا الأجسامُ جسمٌ عمَّنا
ما أرى نفسىَ إلا أنتمُ   واعتقادى أنكم أنتم أنا
فارحمونى ترحموا أنفسكمْ   واعلموا أنـكمْ فى إثْرنا
من رآنى فليقوِّ نفسه   إنما الدُّنيا على قرنِ الفنا(١)
وعليكم من كلامى جمـلةٌ   فسلامُ اللهِ مدحٌ وثَنا

حوادث

١

من الحوادث التى تروى عنه وقال فيها شعراً هذه الحادثة التى يرويها ابن خلـكان قال :

(١) فليقو : لا بد من إشباع الواو ليستقيم الوزن .

. . . وكان له مجلس وعظ وعلى وعظه قبول كثير وله نفس مبارك ، حكى لى من حضر مجلسه أنه أنشد يوماً فى المجلس على الكرسى :

لا تَسْقِنى وَحْدِى فما عوَّدْتَنى ... أنِّى أشحُّ بها على جُلَّاسى
أنتَ الكريمُ ولا يليقُ تكرُّماً ... أن يعبرَ النُّدماءَ دورُ الكاسِ

فتواجد الناس لذلك ، وقطعت شعور كثيرة وتاب جمع كثير . . .(١)

٢

وروى أبو المظفر سبط بن الجوزى قال :

. . . وجلس يوماً ببغداد وذكر أحوال القوم وأنشد — رحمه الله تعالى وعفا عنه — :

مافى الصِّحابِ أخو وجدٍ نطارِحُهُ ... حديثَ نَجْدٍ ولا صبٌّ نجاريهِ

وجعل يردد البيت ويطرب فصاح به شاب من أطراف المجلس وعليه قَباء وكُلُوتة وقال : يا شيخ ، لم تشطح وتنتقص القوم ! والله إن فيهم من لا يرضى أن يجاريك ولا يصل فهمُك إلى ما يقول ، هلا أنشدت :

مافى الصِّحابِ وقد سارت حُمولهمُ ... إلا محبٌّ له فى الركب محبوبُ
كأنه يوسفٌ فى كل راحلةٍ ... والحىُّ فى كل بيتٍ منه يعقوبُ

فصاح الشيخ ونزل من على المنبر وقصده فلم يجده ووجد موضعَه حفرةً بها دم مما فحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت . . .(٢)

---

(١) « وفيات الأعيان » المجلد ٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) « النجوم الزاهرة » المجلد ٦ طبعة دار الكتب المصرية .

المراجع

السهروردى : فى الحكمة الإلهية

السهروردى : هياكل النور

ياقوت الحموى : معجم الأدباء

ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة

ابن خلكان : وفيات الأعيان

: دائرة المعارف الإسلامية

خير الدين الزركلى: الأعلام

ماسينيون : أخبار الحلاج

إبرهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية

عبد الرحمن بدوي : شخصيات قلقة فى الإسلام

على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام

سامى الكيالى : من أضواء الماضى (سلسلة اقرأ رقم ٩٥)

الفهرست

الفصل الأول
عصر السهروردى

الفصل الثانى
السهروردى فى عصره

الفصل الثالث

جوانب السهروردى

صفحة

الفصل الرابع

منتخبات من آثار السهروردى

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٥٥